قلبي قال

اسم الكتاب: **قلبي قال**

اسم المؤلف: **د. محمود السّمان**

تدقيق لغوي: **هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٣٠٣**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٨٤**

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه
للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

د. محمود السّمان

قلبي قال

مجموعة قصصية (الجزء الأول)

هُنا يَبوح لك قلبُك بأسراره الخَفِيَّة
لتراها بعين قلبك على حقيقتها

إبهار
للنشر و التوزيع

إهـداء خاص

إليك أنت أيها القارئ العزيز، فلقد أصبحت عزيزي بمجرد الولوج إلى ساحات هذه الوريقات القصصيّة.

إلي أصحاب القلوب الطيبة وإلى الطيبين والطيبات.

فها هو الآن أصبحنا صديقين، وإنه لشرف الانتساب إلى صداقة الأرواح وان لم تتلاقَ، فكان هذا الكتاب الذي بين راحتيك هو سبب الوصل بيننا، وطريق الصداقة الواصلة بين أروحنا.

فأهلا بك ومرحباً في هذه المكان، حللت أهلاً ونزلت سهلاً.

أقدم لك هذا العمل، وحقيقة الامر أنه ليس مجرد كلمات قابعة في داخلي أسردها لك، إنما هي رحلة، كل قصة رحلة منفصلة، تسرح بك في عوالم شتى، وتذهب ها هنا وتطرحك هناك؛ لتستمتع بالرحلة، وفي نهاية المطاف تجد الحقيقة جليه أمام ناظريك، تجد الواقع يخاطبك أنت مباشرة..

بعد العودة تجد نفسك ما زلت في مكانك!

ولكن قلبك الذي ارتحل من مكانه ليطير بلا طائرة، ويُبحر بلا سفينة، فيجد في أعماقه مخزوناً متفاقماً، لا هو بالهش ولا الصلب، فـ يُسرع ليخبرك به همساً أو جهراً.. لا يهم ذلك أبداً

المهم أنك سوف تجد أن قلبك قال مقولته، وتلك الأهم!

هيا لتبدأ.. أو لنبدأ الرحلة سوياً يا صديقي القارئ العزيز.

هل للقلب حديث ؟!

كما أن في الجسد مُضغة إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.. ألا وهي القلب.

إهداء إلى قلبك أنت.. إلى تلك المُضــغة التي بين ضــلوعك، إلى القلوب الخائفة أحياناً، والواثقة حينا أخر، وإلى قلوب المحبين، وإلى من يتجرع أوجاع وآلام الفراق ولوعة الحب فيصيب قلبه بعض التَصدع ..

إلى هؤلاء وأكثر منهم بكل المراحل..

إليك أنت فقط.. إليك أنت يا قلبي.. وإلى قلوبكم مباشرة..

وإلى كل من كان سبب في إخراج هذا العمل الي النور .

إليك أنت أيها القلب..

فقد بلغ الشوق عنان السماء كي تُخرج كنزك المميز.

حان الوقت لكي تتحدث وتخرج حديثاً مفصــلاً عما في جعبتك الكامنة، وتأخذ منا حيز الأضــواء وتتســلط عليك، ويظل الجماهير في ســكون يستمعون إليك!!

فإن لحديثه لحلاوة.. إن له عمقاً حكيماً وعقلاً واعياً رشــيداً يخطف الألباب وتنجذب إليه القلوب الصادقة..

على انفراد فإني لي حديثاً معك..

فاستمع بإنصات " **ماذا قال قلبُك؟!** "

فهل ستجد الشجاعة لتقف وبعزم ما فيك، تُجهر بأنه **قلبي قال؟**

لماذا تقرأ هذا الكتاب ؟!

ضروب الخيال واسعة للغاية سحره أخاذ بعيد عن تلك الدنيا المتصلبة، شوارع مدينة كبيرة وانت سائح في دهاليزها تجوب هذا الشارع أحيانا تُسر فتنتشي روٌحك فرحاً وابتهاجاً هنا وهناك تُرسل اليك المدينة باقات من الزهور تحية منها لزوارها وتقيم لك المحافل على أعين الناس وتُقرع لك الطبول خصيصاً، لا تغتر بها فإنها مشروب الاستقبال فلا تغتر بلذاذة فيه، فالمفاجئات توابع.

علي ضـــفاف الجانب الآخر من المدينة يُقيم الحزن مأتم في بيت قلبك، اتخذها منزلا له يســـيطر بكل رعونة ويفرض جنوده الاوفياء في جدران بيته، نعم أصبح بيتك بيته فالضمير ضميره يعود إليه وليس لك، والقلب مملكته المُعظمة أفلا يصـــير بكل هذا الجبروت الســـلطة التحكمية في احتلاله!!

مُفعمة رُوحك الطاهرة بمغامرة شيقة تتمتع بها مُقلَتيك بمباهج تُسعدك وتنتشلك من وَحل كوابيسك المؤرقة لراحتك، فهل ستجد راحتك أم لك في اللوح قدرٌ آخر!!

مغامرات جديده تتسم بطابع خاص لا له وصف ولا رسم، لا يُوصف إلا ومدينة لا يدخلها الا من اســـتمع لقلبه، ففي كل مغامرة منها ماذا ســـينفعل قلبك؟! بماذا ســـيَحدثُك؟! بماذا سَـــيَملي عليك بحتمية الخطي وسبل الوصول وكيفية العلاج!

ا ستعد فالمدينة قد أو شكت علي فتح بابها للزوار الكرام، ولا يدخلها إلا من كان له قلب وألقي الســـمع وهو شـــهيد، أنها بعد اللحظات وتبدأ المغامرات ذات البهاء في أخدود مُزخرف يتسع عليك فتُسَر به، ويضيق عليك فلا تقوي على الاحتمال.

ليس كل من بدأ الطريق عليه أن يُكمل، وحدهم الصـــادقين المخلصـــين بقدرتهم أن يستمروا على العهد وما بدلوا تبديلا.

هل أنت على أهبة الاستعداد!

هل أنت لها لتفتح قلبك وتحكي ما به والأهم أن تُنصت له بإتقان!

فأدخل بقدمك اليَمني وشَمّرَ عن ساعدييك وافتح صمامات قلبك وهو يقول كلمته فستجده يُفصح عن مخزونه الدفين.

والآن أهلا بك في عاصمة قلبك....

أهلا بك في مدينتك السحرية الخاصة ....

أهلا بك في المركز الرئيسى ...

أهلا بك في عالم جُهزلك خصيصاَ..

أهلا بك في.. " قلبي قال ...! "

لا أحيَا إلاّ لأنّ في وسعي الموت متى شئت،

لولا فكرة الانتحار لقتلتُ نفسي منذ البداية.

إميل سيوران

* * * * * * * * * * * * * *

"من السهل أن تخدع العين ولكن من الصعب جداً أن تخدع القلب."

آل باتشينو

عليك الانتحار

" لقد أصابتك اللعنة أيها الفتى، اللعنة التي قد تؤدي بصاحبها إلى الانتحار.. هل فكرت يوماً بأن كل ما أنت فيه بسبب لعنة قد أصابتك بسبب جريمة قد ارتكبتها في حق أناس فيما مضى، أما إن مصيرك إلى الانتحاااار...."

قام يحيى فزعاً من نومه يتصبب عرقاً، صدره لا يكاد يخلو من حركة عليا وأخرى سفلى، وأنفاسه المتهدجة تلاحقه بين شهيق وزفير.. لا يعلم ما الذي حلّ به، حاول أن يستجمع أنفاسه المتهالكة تلك ومسح عرق جبينه، وقام ليشرب شيئاً ما؛ علَه يهدأ من تلك الكوابيس.

الساعة الثانية والنصف ليلاً:

الجو هادئ تماماً كما هو الحال في ليالي شهر يناير، لا أحد يمشي تقريباً في الشوارع، المعظم يتلوى تحت لحافه ويغلق على نفسه وأهله أبواب داره، فلا تسمع همساً ولا لغواً.

هذا الهدوء الذي يحتضن ليل يناير في أحضان حانية، لا حضن محبة إنما هي أحضان ترتعد منها الأوصال، وتزرع فيك التوجس وبوادر الخوف، ترتقب كثيراً ويلعب بك عقلك ألاعيبه؛ حتى تتفاقم مخيلاته معك إلى أقصاها.. وللأسف تصدقها..

حاول أن يسير في هدوء، أنار الصالة بالضوء العالي ثم جلس على أول كرسي قابله في الصالة، فشرب من قارورته حتى ارتوى... أغمض عينيه محاولاً أن يستوعب ما الذي جرى!

يُعيد ترتيب المشهد من جديد، هنا تذكر هذا الحلم الذي راوده وأصابه بالفزع المباغت، تذكر تلك الكلمات التي قيلت له وقام على أثرها من نومه بتلك الحالة، سمع صدى الكلمات، وكأن أحدهم يهمسها في أذنيه، وهو يحرك شفتيه بالعرض البطيء، تأكيداً منه على مقصد الكلام والرسالة الموجهة له..

لقد أصابتك اللعنة أيها الفتى، اللعنة التي قد تؤدي بصاحبها إلى الانتحار..

هل فكرت يوماً بأن كل ما أنت فيه بسبب لعنة قد أصابتك، أما أن مصيرك إلى الانتحاااار....

فتح عينيه في ذهول، وكأنه يريد أن يكتشف من القائل! هو لا يشك في قدراته الذهنية مطلقاً، وإن كان بها ريب فأين سلامة أذنيه؟!

تفقد الأرجاء من حوله جيداً، نظر يميناً ويساراً، لا أحد ولا صوت، كالمعتاد هو بمفرده في بيته، لا أحد معه.

هذا ليس حلماً إنه كابوس، كابوس لعين!!

لا نوم الآن، وكيف ينام المرتعد نوماً هنياً؟!

أحس بالبرودة تجري في أوصاله، أعد كوباً من القهوة، وأضاف إليها مزيج الشوكولا؛ ليشعره بالدفء، والتف جيداً بوشاح ثقيل يبعث الدفء في جسده وقلبه..

عزم على الخروج إلى الشرفة، لا يعلم من أين أتت له تلك الفكرة غير المنطقية؟ ولكنها تبادرت إلى ذهنه، خرج وهو يحتمي جيداً من تيارات الهواء بوشاحه، وفي يده كوباً ساخناً من القهوة بالشوكولا.

نظر نظرة سريعة على الشوارع التي تطل عليها شرفته، لم يجد أحداً يسير ولا حتى كلبًا ضالًا يسير على غير هدى، حالة من حالات السكون التام يخترقها صرير الريح مع ظلمة حالكة لا ترى فيها بوضوح ماهية الأشياء، إلا بعض أعمدة الإنارة المعدودة على جوانب الطريق للمارين.

بعد ما أنهى كوبه الساخن أحس بالهدوء يمتلكه، وشعر بأنه أفضل عما كان فيه من قبل.. جلس يحدث نفسه ليخفف من وطأة ما قد قاسه:

- لا بد أن هذا نتيجة إرهاقي الشديد في العمل، فأصبحت مرهقاً طويلاً.
- ليس للعمل علاقة يا يحيى، فأنت منذ زمن طويل في هذا العمل ولم يحدث لك مثل ذلك، لا تكذب على نفسك، أنت سمعت الصوت بنفسك!
- لا لم أسمعه جيداً.. أو سمعته.. لا لم أسمعه.. وإن يكن مش مهم، هي شوية هلاوس أو دور أنفلونزا، وأنا محتاج أستريح كويس بس وهبقى تمام على بكرة بالكتير، أنا هقوم آخد برشام للبرد..
- ممكن ليه لا؟ احنا في عز شهور السنة من الشتا ولازم يجيلك برد.. قوم نام يا يحيى، بس صحيح انت عارف تاريخ الشقة؟! احنا لسه جايين فيها بقالنا أسبوعين.. مش ممكن تكون مسكونة؟ ممكن ليه لأ؟!
- مسكونة إيه بس!

- لا لا مفيش الكلام ده، أنا فعلاً شكلي بدأت أهلوس بشكل غير طبيعي، أنا محتاج أقوم أنام.

أحس برعشة تمتلك جسده من تيار هواء اختلس المرور إلى زاوية الوشاح، واخترق الحواجز ليصل إلى منطقة شعوره، فارتعشت له أطراف جسده، ولكنه كان تياراً لئيما أتى على غير موعد لا مرحبًا به ولا سلام.

أغلق كل شيء كما كان، الشرفة مغلقة تماماً.. الصالة والأنوار، فكر قليلاً.. من الأفضل ترك أنوار الصالة مضاءة.

نظر إلى الساعة في خلسة فوجدها الثانية والنصف كما هي لم تتغير!

حدّث نفسه بصوت مرتفع يسمعه:

أيُعقل استيقظت وشربت قهوتي وبقيت مدة في الشرفة.. وكل هذا لم يجرِ عليه عداد الوقت؟!

ها أنا رحت أهلوس مرة أخرى!

أدرك حينها أن عليه ألا يفكر كثيراً ويترك الأمر أن يسير لا قلق..

طالما كل شيء في موضعه فلا داعي أبداً للقلق...

الزمن سوف يجري لا محالة!

كان الوقت هو العامل الفاصل حتى يمضي كل شيء، القادر على أن يُذيب أطناناً من الجليد بالتدريج، الوقت الذي يستطيع أن يفعل كل شيء، فقط كل ما عليك أن تترك الامر إلى الوقت، وهو سيتكلف بالباقي ولا عناء عليك.

ولكنه كان خرج من عامل الزمن، مقياس الزمن قد انفكت سلطاته عليه ويثبت عند مؤشر واحد لا يميل عنه، أراد أن يحبسه في تلك اللحظة الليلية، لا هو يرى أحداً يساعده ولا ينتظر الشروق فينتشله مما هو فيه.

نام جيداً في السرير، كل شيء كما هو في مكانه، فلا داعي للقلق أبداً.

- يحيى.. انت لسه نايم كل ده؟!

- اللي زيك مكانه مش هنا معانا... انت مكانك فوق... عليك أن تستفيق يا أستاذ يحيى..

كان اللحاف يُسحب من عليه.. يحاول أن يشده وهو في غفلة النوم، يسعى أن يُعيد الوضع إلى ما كان، طالما كان يؤمن في قراره نفسه أن طالما كل شيء مستقراً في موضعه الأساسي فهو إذن في أمان.. ولكنه لم يكن يُدرك أن معها تتغير كل البديهيات.. فهي التي تضع قوانين لعنتها..

حاول أن يقاوم حقيقة ما يشعر، وما زال مقتنعًا أنها هلاوس يناير وسوف تمر مرور الكِرام... في خطفة مفاجأة سُحب اللحاف في سرعة، فنظر في توجس، فرأى هيئة إنسان، وما هو بإنسان يرتدي وشاحه الذي ألقاه قبل أن ينام على سريره، أراد أن يجهر بالصوت عالياً، ولكن لا جدوى، أحبال صوته لا تستجيب لإرادته...

هو يريد والجسد يرفض.. يفتح فمه ويُهيأ الظروف، وما زال الجسد يمتنع عن إظهار أصالة معدنه.. حاول ولكن كيف تفيد المقومات مع انسلاخ القلب من الجسد!

أسرع ليُضيء أنوار الغرفة، تحرك في خوف وهو يرتجف من أعماقه، جاهداً أن يبقى صامداً قدر استطاعته، لعل في صموده الرمق الأخير في النجاة مما يُكابد في تلك الليلة المشؤومة...

استدار لكي يرى مَن نزع اللحاف من عليه وارتدى وشاحه، لم يرَ شيئاً، كل شيء كما كان بوضع يديه، معضلة كل شيء كما هو لا تنتهي من عنده.. طالما

أن كل شيء بالكيفية التي وضعها... فمن أين ظهرت كل تلك الجلبة وذاك التخبط؟ ما هذا الهراء!!

أحب أن يسمع صوتاً يحدثه، صوتاً يحرك صمام أذنيه بأن صوتاً آدمياً يتجاوب معه، حاول الصراخ وتحدث عالياً:

- لا فيه حاجة مش طبيعة تأخذ طريقاً وعراً للغاية، أنا لن أُكَذب عيني، إذا كانت أذُناي قد كذبتها منذ قليل، فلا أستطيع أن أخدع نفسي تلك المرة، رأيت شبحاً ما.. ولا فصال في ذلك، فليس مع العين أين؟!

كان الصمت سيد المشهد، لا حركة ولا صوت يُعبر عن تفرده ويذهب تلك الخزعبلات التي يراها بأم العين، يا ليتها كانت خزعبلات كانت هينة، وإنما هي حقائق بَيِّنَة.

سار إلى الصالة ليستريح قليلاً، أضاء كل أنوار الشقة، اتصل على صديقة معتز؛ علّه يجد فيه سلوى مما رآه أو يحاول أن يطمئن به قليلاً..

اتصل مرة ومرتين وثلاث، لا أحد يُجيب.. كيف يتصل في هذا الوقت المتأخر! يحتاج من يُربت على كتفيه ويحتضنه ويقول له إن كل شيء على ما يرام، وحقاً ما هي إلا هلاوس من دور برد يناير وسيمر كالعادة!

لم يكن له أحداً يُحادثه ويبث إليه شكواه، أو على الأقل أن يشاركه تلك اللحظات الباعثة للقلق والتخبط.. أخذه تفكيره شارداً في ماضيه المتهدم الذي لا يعلم كيف نجى منه..

وحيداً كان، تربى في تحفظ شديد، لم يكن مسموح له بأي نوع من المتع المباحة حينما كان طفلاً صغيراً، نشأ أن يتحرك كما هو مرسوم له...

تعود أن ينطوي في عالمه الخاص، يكتشف بخيالاته ما يمنعونه عن حركة الدنيا المبهجة وعن براح الحياة المفتوح.

وحينما دخل الجامعة، كانت تلك النقطة التي بدأ من عندها كتابة قصته الخاصة بيديه هو، حياة حُرم منها فانطلق إليها، كالطفل الصغير يُريد أن يأخذ من هذا ومن ذاك.

كان يتفنن في التقرب من الفتيات، شهوته كلها في أن يجد الجمع الكثير من أنصاره من الفتيات يقفن بيتاً مرصوداً قوياً هو الذي بناه بيديه، كان يُعوض حياة النقص التي كانت تسيطر عليه، رأى بذلك بأنه يسوف ينتصر لنفسه ولرجولته المهدرة بلا رغبة.

لا يعلم كم الفتيات التي كان يستمل قلوبهن بالكلام المعسول حتى يقعن في شباكه، ثم يفعل فعلته ويُحطم قلوبهن ويرحل بلا رجعة!!

هو فقط يجذبهن إليه، يسيطر على قلوبهن، لا يريد أكثر من ذلك... ثم يجد نفسه نادماً على أفعاله ويصفها بالشنيعة، ويصر على عدم الرجوع مرة أخرى، يشعر بأن شخصاً آخر يسكن بداخله هو لا يعلم عنه شيئاً، يظهر من بين الفينة والأخرى يُحقق رغباته وملذاته ثم يُعاود الاختفاء ويسيطر من الداخل على لُب الأفكار..

فتعود الماء إلى مجاريها كما كانت، حتى ترسخت بداخله طالما أن كل شيء في مكانه، وعلى وضع اليد فلا داعي للقلق أبداً..

- انت نهايتك قربت يا يحيى.. انت جاي والوقت قرب..

قطع ذلك الصوت شروده في ماضيه، انتبه جيداً، لا أحد معه في الشقة... زاد التوجس أكثر وأكثر في نفسه، ظهر على جسده، لم يعد يقوى على ذلك، يتمنى لو أن الأرض انشقت وبلعته، أو لعله كابوساً و سيمر!

- انت مين؟! وعاوز مني إيه؟!

كالعادة لم يجد جواباً شافياً لسؤاله، وظل يُكرر وهو واقفاً مُمسكاً بعصاً في يديه على أهبه الاستعداد للدخول في عركة مع أحدهم بمجرد أن يظهر له، واستمر يكررها ولم يسترِح قلبه أبداً..

انتفض حينما جاء الجواب الذي كان ينتظره على غير هدى بنغمة تليفونه المحمول الذي قطع تركيزه مع هذا الصوت.

- أنت يا معتز! الآن، في تلك اللحظة أفزعتني فيها
- كيف حالك يا يحيى؟ مالك إيه اللي حصل!! أنا كنت مستغرق في نومي ووجدتك قد اتصلت عليّ.
- امم تمام يا معتز، أعتذر لك قلقتك من النوم، بس مفيش حبيت أسمع صوتك بس.
- نعم!!
- مش احنا أصحاب يا معتز! انت عارف إني عايش لوحدي والشقة اللي فيها جديدة، فـ مش واخد عليها فقلت أكلمك أتونس بيك.
- نعم يا يحيى !!، بس مش دلوقت، حد يتصل بحد الساعة الثانية والنصف صباحاً!
- بتقول إيه!! الساعة كام يا معتز؟!

- لاا انت شكلك مش عارف تنام وقولت تكلمني تصدعني في الوقت ده، سلام يا يحيى، ابقى كلمني بكرة الصبح .
- معتز.. ألو ألوو...

نظر إلى الساعة في سرعة، وظلّ متسمراً أمامها لا يُحرك ساكناً..

كيف هذا!!

ما زالت الساعة الثانية والنصف صباحاً، كل هذا حصل والكوابيس ووقوفي في الشرفة لم يستهلك من الوقت شيئاً.. أين الزمن؟ ألا يجري!

نظر إلى ساعة هاتفه المحمول، علّها تخالفه وتُثبت أن ساعة الحائط تُخرف، تأكدت لديه بأن ما يراه ليست خزعبلات.. بل هي حقائق.

الساعة بالفعل الثانية والنصف صباحاً...

- استعد يا يحيى.. اللي انت عملته قبل كده أتى الأوان ما ستدفع فيه الثمن.. لكل حاجة ثمن..

أتى الصوت من جانبه، وشق صدره ليخترق صمت الليل، نظر جانبيه ولكن لا أثر ملموس لصاحب هذا الصوت، تحرك إلى أحد أركان الصالة ثم رد بتلعثم ظهر على صوته:

- أنت ثانية؟! أنت... ماذا تريد مني؟!
- أنا أريد الحقوق يا يحيى، كل واحد لازم يدفع حق اللي أخذه، وأنت لم تُحاسب لحد دلوقت..
- عن أي حقوق تتحدث؟ وماذا أخذت حتى أحاسب على ثمنه؟!
- دوّر جواك يا يحيى، افتكر انت ظلمت مين؟! ومين كسرت قلبه!! دوّر يا يحيى جيداً، لم يعد إلا القليل..

طال انتظاره في أمل أن يجد أي إجابة أو إفصاح عن مفهوم الكلام، ولكن لا حياة لمن تنادي، كعادة هذا الصوت اختفى حينما أراده، ويبرز عن نفسه حينما يرفضه ولا يتمناه.

نظر إلى ساعته مرة أخرى، ولكن لا مفر، قد ثبتت عند مؤشر الثانية والنصف ولا تحرك ساكناً.

جنّ جنونه، بات يتخبط ذهنه بين أفكار غير مهتدية الطريق، تذكر ليالي ماضيه المتشرد.. في كل هؤلاء الفتيات اللاتي قد لعب بقلوبهن ثم كسرهن شر كسرة..

هو كان يحاول أن يجد منفذاً يُثبت فيه أنه قوي وله سلطة على الآخرين، يسعى أن يقتطف زهرة من كل بستان، فتصبح حديقته هو تفيض من الأزهار، وطالما أنه قد أثّر على قلوبهن فقط فلا حرج عليه...

لطالما ظن أن أزهاره ستكون له شفيعاً، ولكنه كان عاجزاً عن الرؤية بأزهار قلبه الذي ماتت بذورها، فلم يُزهر قلبه بعد.

ذهب ليتوضأ ثم يصلي؛ لعلّه يخرج من تلك الهلاوس بهدوء قلبه، لم يكن يصلي منذ أمد، جاءته الفكرة.. استغربها قليلاً، لم يعتَد على أن تحدثه نفسه بذلك...

تحرك الي المرحاض وأنار مكبس الإضاءة في سرعة منه حتي يري كل شيء، طالما كانت الرؤية هي عين الحقيقة ولا قابلة للنقاش او التكذيب، كل ما في الامر أنه أراد أن يطمئن أنه ما زال كل شيء علي ما يُرام ولا داعي لكل تلك الجَلبة التي يُحدثها وان بمرور الوقت سيتبين له أنه يختلق زَوْبَعات لا أساس لها من الصحة، علي كل حال لا داعي للقلق فكل شيء كما تركه في موضعه.

اغتسل بالماء الدافئ، ونظر نظرة ثابتة إلى المرآة.. يتأمل وجهه في هدوء ولا ينبس ببنت شفة.

في لحظة خاطفة للعقل.. وجد صورته في المرآة تتحرك وتخاطبه، على الرغم من أنه لم يتكلم في الأساس!

- انت جيت يا يحيى! أنا كنت واثق من اللحظة دي.. المكان نور بقدومك.

استمر صامتاً وعلامات الدهشة تعلو وجهه، لم يقدر على أن يُرتب الكلمات في صورة جُمل...

لم يكن يقوى على الكلام مهما كانت المحاولات، مَدَّ رَاحَةَ يَدِهِ إلى قليل من الماء فلطم وجهه به، أرد أن يستفيق من تلك الهلاوس، فقد تزايد مداها إلى أبعد الحدود.

نظر مرة أخرى، ويتمنى أنه حقاً قد زالت تلك الهواجس بحفنة من الماء الذي ارتطم بوجهه ليذهب عنه الروع...

وجد وجهه في المرآة يبتسم له، وهو متصلب الملامح...

- لا تخف يا يحيى، مفيش حاجة تقدر تبعدني عنك.. خلاص الوقت قرب ينتهي.. كل حاجة قربت.
- أنت! غير معقول.. كيف تتحدث هكذا؟ أنت مَن؟!
- أنا أنت.. وأنت أنا يا يحيى.
- لا أفهم.. كفاك من تلك الترهات التي تُلقيها في وجهي.. تكلم كلاماً أستطيع أن أفهم محتواه.
- الحفلة في الخارج مستنياك.. وكل تلك الزَّغَارِيدِ احتفالاً بك وبـ عُرسك. المعازيم بيهتفوا بإسمك يا يحيى.. سامعهم؟

- أتي الميعاد لأجل تصل للفرح في الوقت المناسب، حد يهرب يوم فرحه يا عريس!
- عريس؟! انت تقصد إيه بكلامك ده!

عاد كل شيء إلى طبيعته، صورته تمشي على خُطاه في المرآة، يتحرك فتتبعه ويتحدث فتسير على نهجه.. لعن كل شيء، ولعن اليوم الذي انتقل فيه إلى تلك الشقة الملعونة، ولعن تلك الساعة التي حُبس فيها ولا يستطيع الفرار أو اللجوء إلى مَن ينتشله من هذه الهلاوس المُنغصات.

سكن لحظات يلتقط فيها أنفاسه المتسارعة ويهدأ قليلاً، بعد لحظات طالت من الصمت سمع صخب على فجأة يأتي من الخارج، لا يعلم ما مصدره..

تصنت قليلاً قبل أن يهم بفتح الشرفة والولوج إليها، تأكد أن الصوت من الخارج بالفعل، وسمع أصوات غناء وطبول ومزامير...

كانت أصوات الجَلبة تملأ المكان بصخب الصوت والحركة..

فتح مغلاق شرفته على حذر، ونظر نظرة المتوجس الباحث عن سر الغموض وراء ذلك الصوت.. وكانت تلك الفاجعة التي أصابت جسده بالقشعريرة..!!

كانت تتحرك في فناء البيت تسع من العرائس الجميلة، ترتدي فستانها الأبيض، ومن حولهم الزفة المحفوفة بالطبول والمزامير، وتتعالى أصوات الزغاريد بين صوت الأغاني، وكلهن يشاورن إلى يحيى أن ائتنا، فنحن لم ننسَك، وقد بات مكانك محفوظاً.. كل شيء يتحرك معبراً عن فرحته، حتى الشجر يتمايل مع أصوات الطبول طرباً..

واختلت عنده الموازين لتنقلب انقلاباً، ويصبح حينها كل شيء في غير موضعه، وهنا يوجد دواعي وليس داعياً واحداً فقط للقلق..

- يلا يا يحيى.. المعازيم كلها في انتظارك.
- في انتظاري أنا!! لماذا كل هذا؟!
- انت العريس يا يحيى.. انت اللي عملت كدة، ولازم تكمل.
- انتم مين!! ازاي؟
- بجد يا يحيى لم تعرفنا بعد!

أمعن النظر كثيراً.. اقترب أكثر وأكثر..

- غير معقول.. أنتن؟! كيف تجمعتن كلكن هكذا؟! وما الذي أتى بكم في تلك الساعة المشؤومة؟!
- احنا تاريخك يا يحيى، والتاريخ سوف يحكي للأجيال القادمة عن الأثر الماضي، واحنا أثاراك يا يحيى.. لا يوجد مهرب من التاريخ، كل حاجة مُسجلة بالورقة والقلم يا يحيي ولازم تسدد ديونك كلها..... لازم !
- أنا مستعد أعمل ما تردن مني.
- بس الكلام ده مضي عليه وقت طويل وعهد قديم، والطرق تاهت والقلوب ضاعت بين الطرق.. الحساب ثقيل أوي يا يحيى.. لن تقدر عليه.

تتعالى أصوات الطبول أكثر وأكثر، والكل في صوت واحد على لحن قد أعد لتلك اللحظة ترتفع أصواتهم يحيى.. يحيى.. يحيى

- بس أنا هحاول.. محتاج فرصة.. أبدأ منين؟

سكتت الأصوات فجأة، الكل وقف معاً في تناسق مرتب، وكأنهم قد تدربوا على تلك الوقفة منذ شهور، وأتى وقت تنفيذ الحكم..

تقدمت إحدى العرائس، وقالت بنبرة لينة بعض الشيء:

- انت السبب يا يحيى.. انت ظلمتنا.. اعتصرت قلوبنا ووعدتنا وأخلفت.. انت ظالم يا يحيى.. ظلمت نفسك أولاً وأخدتنا معاك.
- بس كل حاجة ليها حل.. ممكن أتراجع عن ظلمي وتسامحوني؟!
- لا نملك الحلول يا يحيى.. احنا نرشدك للطريق فقط.. وانت وشطارتك تكمل في الطريق ولا تغير مسارك لطريق كله منحدرات!
- قولي لي فين البداية؟!
- اسأل قلبك يا يحيى، الإجابة ستجدها بداخله.. البدايات والمسارات والكيفيات بداخله... شوف قلبك يا يحيى، سمعت قلبك قبل كدة؟!
- قلبي!! هو البداية؟!
- قلبك محتاج يبقى منور لأجلّ تشوف بيه يا يحيى.. من تاريخك المعتم خيّم على أنوار قلبك.. قلبك أسود يا يحيى.. بس الإجابة عندك.. اسمع قلبك يا يحيى..

سألها في حيرة:

- ماذا أقول؟ وماذا أفعل؟

فابتسمت ابتسامة بسيطة، وهي تقول:

- قد أصابتك لعنة الوقت، قد حُبست داخل توقيت لا مناص منه.. مثلما حبستنا انحبست انت كمان.. أنت اللعنة وأصابتك شرورها وانعكست عليك.. ولكن ثواني هناك طريقة ما.....

- هلا تخبريني بها؟ أريد الخلاص من هذا.. قلبي قد ذاق وشقّ عليه تلكم الأحداث.. حقاً أريد الخروج من تلك الدوامة، من هذا الرعب الذي أعيشه.. قولي لي أرجوكِ.
- اقفز يا يحيى، عليك أن تفك اللعنة بيديك، عليك أن تقفز الآن.. الانتحار هو الوسيلة الوحيدة التي بها ستتحرر من قيودك. المعازيم أصابهم الزهق وهمَوا بالرحيل، يرضيك يا يحيى! هيا أسرع.. كلنا في انتظارك.

وقف مندهشاً من الطريقة المُميتة تلك، وهل النجاة بالموت!

ارتفعت الأصوات من جديد في نغمة واحدة

- تعالى يا يحيى.. تعالى يا يحيى خلاص انت قربت يا يحيى... تعالى حالاً.. اوعاك تتردد لحظة، نهايتك أتت ومفيش حد يقدر يهرب من نهايته، النهاية محتومة.

نظر في الأجواء، برز شريط تاريخه بارزاً امام عينيه، عزم على التخلص من تلك القيود.. عزم على النجاة ...

لا مفر من أن تنتهي اللعنة!

عليه أن يتشجع، أن يقوى على أخذ أي خطوة، أيظل هكذا متخبطاً لا يعلم أين يهتدي؟! أم يقفز وينهي تلك اللعنة، تلك الدوامة التي ضاع فيها وخرج برة مقاييس الزمان.. عليه أن يجد حلاً.. عليه أن يفعل شيئاً ما.

- عليك الانتحار يا يحيى.

وقف يراقب المشهد ويستمع إلى حديث قلبه الخائف الراغب في طوق النجاة من تاريخه المظلم.

ضربات قلبه تتسارع.. يشعر به يخترق أضلعه، يتنفس بسرعة وكأنه يهرب من قسورة ويبذل أقصى ما عنده، هواء الليل يصطدم به بشدة.. الأصوات عالية، ضوضاء في قلبه.. تفكيراً يزلزل كيانه..

صعد على حافة الشرفة وأغمض عينيه.. فتح ذراعيه للهواء الطلق.. ترك نفسه تماماً.. ثوانٍ بسيطة.. استراح من كل شيء.

هدأت الأصوات حتى اختفت تماماً.. عاد كل شيء ساكناً كما كان.. إيماناً لا يفارق يقين يحيى.

" طالما كل شيء في موضعه فلا داعي أبداً للقلق."

كل شيء يموت يا حبيبتي الغالية، حتى الذكريات وحتى أنبل العواطف، ويحل محلها نوع من الحكمة الباردة يجعل الندم يهدأ.. فلماذا نثور؟!

دوستويفسكي

* * * * * * * * * * * * *

الحقيقة؟!

سيقول لك الحقيقة فقط الإنسان البائس، البائس تماما سيحدثك عن كل شيء

سفيتلانا ألكسيفيتش

لا مفر من الندم!

"انتِ اللي عملتي في نفسك كدة، اللوم يقع على عاتقك أنتِ حتى لا أخدعك يا بنتي، ازعلي براحتك مفيش حاجة هترجع اللي راح."

نظرت إليها بأعين رقراقه يظهر لمعانها في الضي من احتباس الدموع في مُقلتيها، يبدو عليها الحزن إن نظرت إليها لأول وهلة.

- ولكنني الآن نادمة على ما قد مضى، وأتمنى أن يُعاود النظر إليّ من جديد، أن يلمس قلبه حنين الرجوع إليّ، اكتشفت بعد كل هذا أني كنت أحبه، ولكن غشاوة قاتمة كانت على عيني فلا ترى، وعلى قلب فلا يشعر ولا يستقبل دلائل محبته.

أغمضت عينيها قليلاً، ثم أردفت بصوت حزين:

- لا أعلم لمَ أقول لكِ هذا الآن! لعله نوع من البُوح عما يضمر في صدري، ولكنها لا تُجدي نفعاً في الوضع الحالي، ويمكن عشان لن أجد البراح في أن أفضفض مع أبي وأمي؛ لإني عارفة اللي يقولوه، وعارفة إن معاهم حق في كل كلمة هيقولوها.
- دعيني أحكِ لكِ تفاصيلاً غائبة عن ناظريكِ.
- قبل طلاقنا بـ أربعة أشهر كان الوضع مستقراً في بيتنا، لم يمض على زواجي بـ مصطفى سنة وبضعة أشهر، بعد ما أنجبت نور أول فرحتنا وآخرها..

- مصطفى كان حالته المادية متيسرة.. هو مبرمج في إحدى الشركات الإلكترونية، شهم إلى أبعد الحدود، ومحبوب من كل اللي حوليه، والأهم من كل ده إن مصطفى كان متدين جداً، بيراعي ربنا في كل خطوة يخطوها، ويتقي ربنا فيا، والبيت عنده أولوية لا يُقصر في حقها..

حاولت أن تستجمع الكلمات بين شفتيها، وقالت:

- شايفة كل المميزات اللي ذكرتها لكِ آنفاً، أنا كنت عمياء عنها، كنت شيفاها معقد ورجعي، إنسان ممل لدرجة إنه يُفضل البيت ولا يحبذ السفر والتسوق والفسح الليلية، تقليدي في اختياراته، ورافض فكرة شغلي.
- أنا كنت أريد أن أحقق طموحاتي وأكتب لنفسي مستقبل أفضل أنظر إليه بعين المتباهي المتفاخر، جوازنا كان جواز معرفة، وأنا كنت بدور على قصة غرامية الكل يحكي ويتحاكى بيها، بس كانت أمر طبيعي للغاية.
- مصطفى، أنا زهقت من العيشة بالطريقة دي، ولازم تشوفك حل.
- إيه اللي مزعلك بس يا حبيبتي!
- انت إنسان ممل وتقليدي، وأنا بداخلي طموح وأحلام بحلم إني أحققها وأثبت نفسي وكياني.
- للدرجة دي، على فكرة انتِ بالنسبة لي ناجحة وأنجح زوجة مش محتاجة تُثبتي بأي دليل، والحمد لله وضعنا المادي مستقر، لا حاجة للعمل.
- بس أنا هشتغل يا مصطفي عشان نفسي، عشان نفسي وبس.
- انتهى أول خصام بيننا، ولكنه كان الشرارة الأولى لاحتراق الفتيل الذي أحرق البيت من أساسه، كان كل مرة يحاول أن يُطيب بخاطري، كل محاولته تقول حقا إنه يُحبني، أو كان.

توالت النزاعات بيننا، وهو مازال محافظاً على بيته، ويقول لي:

- إن البيت عنده مهم، وأنه سيحافظ عليه قدر استطاعته.

كنت أتمنى أن يهزني هزاً أو يرجني رجاً، وإذا تطلب الأمر أن ينهرني ويصفعني بقلم مباغت على خدي؛ لكي أنتبه من تلك الصرعة الجنونية التي قد انتابتني، وأصحو من غفلتي.

جاءتني فرصة للعمل في جريدة كبرى، وجدتها فرصة على طبق من ذهب جاءت إليّ حتى أبدأ في أولى خطوات أحلامي، وأسلك مسلكي المهني المُشرق بعد ما كدت أفقد الأمل، لم أتردد كثيراً في اتخاذ القرار، ذهبت واتفقت على ظروف العمل بكل ترتيبه بدون علم مصطفى، أحببت أن أصنع له مفاجأة، ولكن يبدو أنني فاشلة في صنع المفاجآت وتهيئتها.

- مصطفى أنا اشتغلت في جريدة صحفية.
- إيه.. ازاي ده حصل؟!
- عادي، أتت لي فرصة وحسيت إنها خطوة مهمة في حياتي المهنية، فالتحقت بها وقبلوني، واتفقت على كل حاجة.
- كل ده حصل من غير ما أعرف؟ أنا مسؤول عن البيت ده، على الأقل كنتِ تعرفيني، واحنا فيما سبق أنهينا خِلاف الشغل بأنه لا حاجة لنا فيه!
- دي حياتي أنا وأنا اريدها بهذا المنظور، انت خايف مني في وقت نجاحي هبقى عاملة إيه، عارف ليه يا مصطفى؟ عشان انت إنسان ممل وتقليدي والنجاح ليس مقتصرٌ عليك.... وأنا لازم أحقق نفسي في شغلي.
- راجعي نفسك كويس، بس أتمنى ده يكون قرار تُحمد عقباه فيما بعد بالنسبة ليكِ، بس خلي بالك من بيتك في الترتيب الأول.

لم أتهاون في الرد عليه لإثبات رأيي، واشتغلت ومرت الأيام وبدأت أتعامل مع أناس كثيرة، وبحكم شغلي في الجريدة كنت أرجع إلى المنزل في أوقات متأخرة، فأرى منه غلظة في تعنيفي على ذلك، وأن حق البيت فيه تهاون، كالعادة سمعته ما لا ينبغي وما لا يحب، وكعادته خاصمني يومين ثم عاد للحديث معي.

لم أعلم أني كنت أسير في طريق آخرته ندم وهلاك، لم أدرك حرصه عليّ ولا رؤيته لمشروع بيتنا بأنه هو الأهم على الإطلاق، لم أكن أعي أن نجاح بيتي واستقراره هو معناه نجاحي، وما أعظمه من نجاح!

بدأ ينصرف عني وأنشغل أنا عنه، لم نعد نتقابل كثيراً بحكم عمله وعملي، نتقابل في العطلات الرسمية كالغرباء، أهتم بـ نور وببعض نظام المنزل وأترك معظمه مهملاً، حاول مرات أن يظهر لي حقيقة ما يُبطن، ولكني كنت أترفع عن السماع إليه، بحكم شغلي سمعت كثيراً عن حقوق المرأة وعن حريتها في الاستقلال والنجاح ولا سطوة عليها من أحد، مع صخب المجتمع من حولي، وكلمات الزملاء من حولها..

قررت في لحظة أن أخلع الحجاب، وكالعادة لم أخبره بهذا القرار، وتوالى الجفاء حتى جاءت القشة التي قسمت ظهر البعير.

كنت قد تأخرت على العودة إلى المنزل في هذا اليوم.

- انتِ عاملة ليه كدة؟ انتِ خلعتي الحجاب إمتي؟
- حكم الشغل يقتضي عليّ كدة.. وأنا حرة ألبس ما أريده وما يستهويني
- لا يبقى لا حاجة لنا في شغل زي ده.

- لا أنا احب ذلك و أريد الشغل ده، انت لن تتحكم فيا، أنا أفعل ما أريد واللي بشوفه مناسب.

وقلت له جميع ما في قلبي تجاهه، وأني لم أحبه يوماً وأنه فُرض عليّ، لم يُحرك ساكناً، ولم يتلفظ ببنت شفة، إلا أنه نظر لي نظرة لم أكن لأنساها طوال حياتي، نظرة اجتمعت فيها كل معاني العتاب والقسوة، نظرة جردتني من شعوري مطلقاً، يا ليته كان قد تكلم أو حرك ساكناً أو وصل إلى أن يصفعني بالقلم، ولكنه لم يكن يفي بالغرض.

قلم قد تأخر ميعاده وبهتت آثاره، لعله كان أخف وطئاً من قراره..

إلا أنه بعد بُرهة من الوقت نظر لي في ثبات وحزم وقال لي:

- أنتِ طالق.. وانتهى كل شيء في لحظة.

- كل ده حصل! هوني على نفسك.

صُدمت من قولته تلك، لا أتذكر كيف جئت إلى بيت أبي، كيف مرت الأحداث سريعاً هكذا، شريط من الأحداث مر أمامي، لطمات عنيفة تأخذ حظها من نفسي وتصفعني كإناء ممتلئ بالثلج البارد قد سُكب عليك مرة واحدة.

نار مشتعلة مع ماء مُثلج تسمع بأم أذنيك صوت الطشش هذا الصوت الذي تسمعه حينما تضع بارداً جداً علي ساخناً جدا ويا لهول ما وضعت!!

ولكن من يشعر خلاف من يسمع، فالشعور أولي بالتقديس لأنه أرقي في علامات التأثير ويبقي منه الكثير ولا يزول .

الشعور في حد ذاته كرباج قد نزل على الجلد العاري لسجين يُنفذ فيه حُكم التعذيب، واحدة تلو الأخرى، جَلدة بعد الأخرى، ومن كثرة الألم تاهت

منه الكلمات فتصلبت مشاعره، وفي هول الصدمة التي تلقاها قلبه فتوقف عن الخفقان، فلم يعد له عضلات قابضة، فقد فقدت الأوتار انسجام انقباضها وانبساطها، وحينما تلقاها عقله لم يستوعب ما هي حقيقة الأمر، عله حلم وسوف يستيقظ منه في القريب العاجل، لا ليس حلماً.. بل كابوساً مرعباً يحتاج تدخل لصرفه والنجاة منه، ولا سبيل للنجاة منه، وحينما أدرك الجسد تداعت قواه، وهوى به على الأرض فوقع مغشياً عليه.

ثم راحت تبكي بشكل هستيري، ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء والنواح، وأن تندم على ما قد اقترفت في حق نفسها بعد كل هذا العناد مع نفسها، قالت وهي تحاول أن تستجمع رابطة جأشها، لتعيد كيانها المتفكك وتصيغ ترتيب من المعاني، فقالت بعد نفس طويل زفرت فيه زفيراً عريضاً:

- من الآخر أنا اكتشفت إني بحبه، بس للأسف اكتشفت ده متأخر أوي، ولما كنت بقارن بينه وبين أي واحد تاني كان اتقدملي، كان دايماً هو اللي بيكسب.
- عارفة ما جعلني أتأكد إني كنت في طريق كله ممتلئ بالألغام وكانت الغشاوة تأخذ حيزاً واسعاً على عيني، حينما رأيته تلك الليلة مع زوجته الجديدة، رأيت بينهما الانسجام والوفق، وكأنه يحبها منذ فترة! كانت حرب تشتعل بين أضلعي، أيعقل وصلت الأحداث إلى كل هذا؟!
- لم أكن لأتخيل مُطلقاً أن توصل إلى هذا المنحدر الذي غير كل شيء، شعرت وكأني ريح عابرة مرّت وأخذت معها ما أخذته وتركت ما تركت، عندما اخترت الشغل على بيتي طغت كفة على كفة، فكرة التوازن لم يكن لها وجود عندي لأحققها، فطبيعي لازم حاجة واحدة تكسب والثانية تخسر، يا لفداحة الخسارة!

- حاولي تتماسكي شوية، الناس بدأت أنظارهم تتجه لينا، انتِ دلوقت امرأة ناجحة ومعروفة، والناس تطلبك وتنادي عليكِ بالاسم.
- حتى ده... لا أعلم جلياً إن كنت أريده فعلاً ولا لا؟ تقدري تقولي لي هعمل إيه بالنجاح وأنا لوحدي؟ مين اللي هقدر أفرح معاه بحلاوة النجاح ده!!
- ياريت كنت سمعت لقلبي قالي إيه وقتها!
- كنت في حالة غير واعية، كل ما يهمني جنون النجاح المتسارع لأقطف ثمرة نجاحي، ولكن تبين أنه نجاح فاشل، لم يكن يستحق كل هذه المعاناة وتلك الخسارة المؤلمة.

لم تكن في حال تستطيع أن تتماسك فيه، فتداعت أكثر وأكثر، وراحت تنساب العَبرات من مقتليها واحدة تلو الأخرى، وكأنهن في سِباق للفوز بالمركز الأول، من سيفوز للوصول إلى نهاية خديها.

- أنا سأطلب لكِ كوبًا من الليمون حتى تهدأ أعصابك.

ذهبت إلى الكاشير مسرعة، ثم عادت في خلال ثوان.

- النجاح ظاهر في حياتك وانتِ بقيتِ ناجحة، وأنا أفرح معاكِ، مش أنا صديقتك المقربة ولا إيه؟!

همّت بإخراج منديل لتمسح سيلان دموعها، و أومأت برأسها علامة الموافقة ثم ارتشفت القليل من عصير الليمون لتهدأ أعصابها، وإذا بها تنظر في الفراغ ويعتلي الصمت، ليصبح مهيمناً على الموقف، وبعد لحظات من الهدوء التام نظرت إلى صديقتها وقالت:

- عارفة أنا افتكرت جملة بابا قالها لي لما الموضوع بينا انتهى...

"بعد يوم أو شهر أو سنة هندم ندم شديد جداً على اللي ضيعته من إيدي، إني ضيعت راجل نادر في الزمن ده. "

- وقتها كان غروري متمكن مني، بس دلوقت بس عرفت معنى الندم.
- أنا اكتشفت إني مش سعيدة بنجاحي ده، على قدر حسرتي على فقدانه، كل يوم برجع من شغلي اللي كنت محتاجة أثبت نفسي فيه وبفضل وحيدة حتى ابني نور تركت أمر حضانته؛ حتى أتفرغ لنجاحي ومستقبلي، ولأظهر العناد معه بأني شخصية قوية.
- وما أضعفها من قوة!
- فلم أجد إلا الوحدة وما أقساها!
- لا يوجد مفراً من الندم يا صديقتي!! لا يوجد أبداً!
- شعور سئ يجتاح قلبي بشده، تتراقص مشاعري علي نغمات اليأس، البكاء قد أهلك أضلعي، والهم ثقيل.. الندم ينهش كل شيء بي.. فقدت خفقان قلبي وما يجلعه حي يُرزق.. فقدت ما فقدت والثمن نفيس.
- كل ما قاسيته سوف يبقى جراحاً لا التئام لها، كلما تعرضت للهواء المكشوف زاد الألم، كلما طفَتِ الذكرى على السطح كان شدة الجروح تنهش في جسدك نهشاً، وتفتك بالقلب فتهتك حرمة مشاعره.
- ففجأة تنظري بداخله لتجدي أنه أصبح ممتلئاً بالجراح والألم.. وكلما حاولت تطهير هذا الألم.. لم يُجدِ نفعاً، فأين لي بمُطهر يشفي جراح ألمي!
- ويمحو صحيفة أخطائي التي طرحت ثمارها العفنة وكانت العاقبة !
- كلما هربت وجدت نفس المصير..
- كلما تخطيت وجدته قابعاً في داخلي..

- او تعلمين كان يتوجب أن أري جيداً عواقب تلك الاختيارات ، حتى وإن كانت في صالحي في بداية الامر، ولكنه أتي علي حقوق أخري ، فلم أنتبه إليها جيداً، وأردت أن اجري بكل إقدام نحو نجاح اتضح الان كونه مُزيف ، وها هي الان أراها تتطاير كالسراب في هواء الماضي المؤلم.

لمَ لم أفكر بتلك الحكمة من قبل ؟!

هي تلك الحكمة التي تَعقُب كل درس نتعمله، يترك فينا أثره بعلامات تلك الحكمة !

- كلما تقدمت انتكست بتأثير رجعي..
- لا يوجد مفراً من الندم يا صديقتي!
- لا يوجد أبداً !

يكفي ان تَدُقّ ُالباب أو تطل بوجهك من النافذة ..

لا حاجة بك الى اللف و الدوران

شارلوت جراي

* * * * * * * * * * * * *

فكرة البحث عن الحب في كل الطرقات أمراً مرهقـًا للغاية،

ويستنفذ قواك العاطفية.. عليك أن تصبر حتى يَدُقُّ بابك

رغمـًا عنك، ويُعلن عن نفسه بنفسه..

فلا داعي للعجلة وعليك التريث...

محمود السّمان

البحث عن العروسة الألف!

- أهلاً بيك يا ابني في بيتنا المتواضع.
- أهلاً بيك يا عمي.
- أنا يسعدني ويشرفني أن أطلب إيد بنتكم الكريمة.
- واحنا لينا الشرف إننا نستقبل في بيتنا عضو جديد.
- طلباتك إيه يا عمي؟ كل اللي عاوزينه أنا طوع البنان.
- يا ابني احنا بنشتري راجل.. احنا طلباتنا .....
- بس أنا لسه شاب في مُقتبل العمر وداخل البيت من بابه!
- شكراً نورتنا يا ابني، انت عارف إن كل شيء قسمة ونصيب.

هذه المرة السادسة عشر أو السابعة عشر تقريباً على ما أتذكر -تركت الحساب والعدّ منذ زمن- أن أكرر ذلك الحوار بالترتيب، كل مرة أدخل فيها بيتاً جديداً في رحلتي للبحث عن عروسة، لا أعلم هل كل البيوت درسوا نفس المناهج في مدرسة عامة مفتوحة، وكانت المناهج ثابتة لم تتغير ونجح فيها كل الطلاب!

أم أنهم قد اجتمعوا اجتماعاً طارئاً؛ لوضع بنود وعقود لا بد من الكل أن يسير على حذافيرها ولا ينافي شروطها!

أنكرت كل ذلك بعد عدة محاولات واقتنعت بالمقولة التي تقول

إن الشخص الذي يتم رفضه من أكثر من عروس فهو شخص حذق وفطن لا تنغمس قدماه بسهولة، ولا يصبح مسقطاً سهلاً لأي فتاة.

على الرغم من أني التي اخترعتها بعد هذه التجارب، إلا أني اعتبرتها قولاً مأثوراً مهماً لأحد أهم المؤثرين ذوي الخبرة في التاريخ.

هكذا علقت هذه المقولة على حجرتي غرفتي، وكتبت أسفل منها

كل البنات بتحبك، كل البنات حلوين،

طبعاً يا سيدي يبختك، وانت اللي زيك مين.

كنت أضحك على نفسي، ولكني كنت ولا بد أن أصدق نفسي، وصدقتها لا يوجد من هو مثلي، وكان ما يؤكد لي ذلك قول أمي لي بإنه:

" انت يا حبيبي ألف واحدة من البنات تتمناك. "

هكذا قالت لي أمي، وأمي لا تكذب أبداً، فصدقتها هي الأخرى، والألف رقم ليس بهين، فلمَ الاستعجال إذن! فأنا ما زلت في بداية الأرقام، انقضى من الألف تسعة عشر فقط، إذَن لا داعي للقلق، كل ما عليّ فعله أن أسرع حتى أقابل ببقية الألف اللواتي يتمنونني، عليّ أن أُشمر ساعديّ للبحث عنهن جميعاً... لا تقلقن، فأنا قادم إليكن.

كدت أن أضعها في لوحة فنية بخط اليد تُعرض في أحد المتاحف المشهورة ، ولكني قررت أن أكتفي بها مُعلقة علي جدارن غرفتي الي أن أحققها .

أنا مُعاذ الرملي، شاب في مقتبل العمر، في الخامسة والعشرين من عمري، تخرجت لتوي من كلية الآداب، لا أتذكر كثيراً عن محتوى الدراسة ولكني كنت أحضر للكلية من أجل أهداف أخرى -نبيلة بالطبع-، كنت في رحلة

البحث عن الألف، وطالما تمنيت أن يجدوني هن سريعاً، كرست حياتي منذ التحاقي بالجامعة في أن أجد عروساً مناسبة.

لم أكن وسيماً، فلم أكن ملفتاً للأنظار، فكنت أفقد الأمل أن يجدوني، ولذا قررت أن أوفر عليهم المسافات وعزمت أن أذهب إليهن، وأشق لهن الطرق، لذا تركت مفتاح الوسامة وابتعت مفاتيح اللسان المعسول.

- فيه معلومة مهمة جداً عاوز أقولها ليكِ.
- خير أنا سمعاك يا معاذ!

"رجل سقى كلباً فدخل به الجنة، ماذا لو كان مكان الكاف قاف؟! "

- نعم!!
- ماذا لو سقيتي أنتِ هذه القاف؟!
- ماذا تقصد إذا؟ لم أتفهم مُرادك !

تبسمت ابتسامة خفيفة وبكثير من الثَقل الانثوي أشاحت بوجهها ثم تناولت كوباً حقيقياً من الماء ثم تُعطه لي وكأنها فهمت مباشرة بلا لف أو دوران، يستهويني ذلك الدهاء الانثوي، تعلم المقصد الدفين ولكنها تتهرب بلطافة وتُظهر بانها لم تفهم غير المُراد الحرفي للكلام وتتغابي عن المَرمي المقصود من اصل الكلام، لم تفهم رغبتي في الوصال بها وبمغازلتي لها، وكانت البداية... بداية أغرقتني بحلاوتها المُرة !

لا أنسى جمال البدايات، فالبدايات دُرر مكنونة يأخذك سحرها، مُدهشة ذات بريق جذاب، ولكني كنت في بداية الطريق، لم أعلم أن سحر البدايات له سحراً، ولكن بمعنى مختلف، تذكرني تلك البدايات بمسحة القطن قبل وخز الإبرة لكي أتعظ، ولكن لست أنا الذي يتعظ من أول وخزة!

فكانت تلك أولى عمليات البحث، الأولى في الألف، وكالعِقد الذي سحب معه بقية الحبات اللامعة، وعلى الرغم بأني انفطر قلبي حينما تكسرت أولى الصوامع القلبية على رأسي وحزنت كثيراً..

ولم أعد أصدِّق البدايات، فكانت لي بمثابة الخباز الذي يُطبطب على العجين في بداية الأمر، ثم يُدخلها إلى الفرن لتتشبع من لهيبه ونيرانه فتنضج، كنت أنا العجين، وكنّ هن الفرن.

توالت الأخريات في الظهور أمامي، ولم أؤخر قدماً ولا فعلاً للوصل بهن، في كل واحدة منهن، أنسى كل معاني الحكمة مما مضى، وأقبل بكل كياني مأخوذاً بسحر البداية حتى أجد نفسي أستفيق من وخز الإبرة، فتعود لي الحكمة من جديد، وهكذا دواليك.

حينما وصلت إلى رقم عشرة، قد ذاع صيتي في الكلية، حتى أن أحد الأساتذة القريب إلى قلبي قابلني ذات يوم، وبعد سلامنا قال لي مداعباً:

- انت مش ناوي تلاقي عروسة بقى وتتجوز وتخلص وتريحنا منك؟

ضحكنا كثيراً على هذا، ولكن كان لا بد لي أن أوضح له قبل أن أودعه..

- أنا لا أتهاون أبداً في البحث يا دكتور، ولكن النصيب له كلمته.

ضحكت وضحك هو الآخر، ليرد ويقول لي:

- يا ليتك كنت تبذل المجهود هذا في المذاكرة، كنت زمانك مرتب على الدفعة وكان لك نصيب أن تصبح معيد.

على غرار ضحكاتنا لم أُضيع الفرصة أبداً لأسأله:

- طيب ألاقي عندك عروسة ليا ؟

كانت في نيتي أن أتكلم بجدية، ولكنه ظن بي أني أتفكه أنا الآخر، فضحك مقهقهاً ثم سلّم وانصرف.

كنت سريع الذوبان في العلاقات كما يذوب السكر في الماء، فكنت أنا السكر وكن هن الماء، وما أكثر قطرات الماء يستوعب بعض حبيبات السكر بين أجزاءه.

في الكلية كان الجميع يعرفونني، كان لي صيتاً وانتشاراً واسعاً بين مختلف الفرق الدراسية، راح من يعرفونني تأخذهم الدهشة.. كيف لي بهذه السرعة من الالتئام من وخز الإبر ومن الولوج إلى علاقة جديدة بكل حماس!

كيف لي بهذا النشاط في التنقل بين غرفات القلوب، وبين الذوبان بين قطرات الماء!

إلا أنهم لم يفقهوا أمرين مهمين باتا هما الاثنين نُصب عيني، أولهما بأني صاحب رسالة نبيلة، وهي البحث عن عروسة، أو الوصول إلى ألف عشيقة، ثانيهما بأن العجين يحتاج وقتاً كافياً في الفرن حتى ينضج.

ومن الواضح بأن عجينتي تحتاج إلى نوع مميزاً من الأفران، كنت أحتاج إلى المزيد والمزيد من التسوية، أو على الأرجح كنت أدخل إلى الفرن الخاطئ في كل مرة، فتحترق عجينتي وتلتهب الأطراف وبعضاً من منتصف العجينة، لتجد فرناً آخر لتدخل فيه يحتوي مراحل تسوية هذه العجينة الخاصة.

رحت أعذر مَن في الكلية، فللأسف هم مساكين، لا يحملون هم الرسالة مثلما أحمل أنا.

تخرجت من الكلية ودعك من أيام الكلية الخوالي تلك، لا داعي لذكر بقية الوخزات، فكلها ممتعة في بداية الأمر، إلى أن تتفاجأ بشيء ما يتسرب إليك

لتتأوه من فرط اللذة، تحسبها وخزة الغرام إلى أن تُدرك بأنها وخزة الإفاقة والفقد، ليتضح بأن تلك التجربة انتهت، وأنني فقدت واحدة من الألف، ولكن أُسلي نفسي بأنه كلهن سيذهبن إلى أن يأتي الفرن المناسب، لم يكن يهمني كثيراً ماهية الفرن، ومن أي علامة تجارية معروفة أو خلاف ذلك، المهم بالنسبة لي فرناً دافئاً يفي بالغرض.

التحقت بالجيش، فكانت أصعب فترة على عجينتي الخاصة، فلم تجد طوال مده كبيرة فرناً واحداً يأويها، لم تجد طعم الدفء، ولكن كان عليها أن تختمر جيداً؛ حتى لا يُصيبها الملل، فيقتل رغبتها في التسوية، أو تُصيبها نقمة البرودة فتنكمش مكوناتها، وما أدراك ما مكوناتها!

في أثناء فترة خدمتي في الجيش، تحولت دفة البحث من عندي إلى أمي، كانت مُنشأة الرسالة في مهدها، فكانت تؤمن بحقي في حمل تلك الرسالة على عاتقي، ولذا تولت هي مهام البحث عن عرائس بالجملة، نختار عدداً لا بأس به -علّ إن لم تُصب إحداهن فيكن هناك وفرة من الاختيارات- ثم نفاضل بينهن ونقيم بينهم التصفيات ونختار الأفضل، ثم تبدأ الرحلة بترتيب المراكز، ولا أحد يخرج من المنافسة، فكما كانت هي رسالة شريفة نبيلة، فكذلك كانت التصفيات شريفة ومن ثم المنافسة، حتى تقع الفأس في الرأس أو تجد العجينة مأواها وحماها، ليتم تسليم الرسالة لأجيال أخرى تحملها من بعده.

- أهلاً بيك يا ابني في بيتنا المتواضع.
- أهلاً بيك يا عمي.
- أنا يسعدني ويشرفني أنا أطلب إيد بنتكم الكريمة.

- وإحنا لينا الشرف إننا نستقبل في بيتنا عضو جديد.
- طلباتك إيه يا عمي؟ كل اللي عاوزينه أنا طوع البنان.
- يا ابني احنا بنشتري راجل.. احنا طلباتنا...
- بس أنا لسه شاب في مُقتبل العمر وداخل البيت من بابه!
- شكراً نورتنا يا ابني، انت عارف إن كل شيء قسمة ونصيب.

هكذا دوماً يتكرر، ثم أسجل في ترتيب الأرقام في سجل الوصول إلى الرقم ألف..

لم تقف المحاولات طوال فترة الجيش، أنا كنت أقف لخدمة وطني، وأمي كانت تقف لخدمة الرسالة وترتيب المنافسة الشريفة، أحمي أنا الوطن وأمي تحمي الرسالة، وكنت ألتقي بمن نتوسم فيهن الأعلى قدراً في تجميع نقاط التصفيات.

- احنا جايين النهارده نتكلم على بنتكم.
- تتكلموا على بنتنا ازاي؟
- أنا قصدي إحنا جايين ناخد بنتكم لابننا معاذ.
- فهمتك يا أم معاذ، ده يوم الهنا لما نرتبط بناس أخلاق زيكم كده.

انتظرت أن تأتي مقولة احنا بنشتري راجل حيث إن من بعدها يتغير سير الأحداث في الاتفاقات، إما إلى ترتيبها الطبيعي بجوار أخواتها، أو إعداد العجينة رويداً رويداً؛ لتدخل إلى الفرن.

- انت يا ابني شغلتك إيه؟
- أنا في الجيش يا عمي، ولما أخلص هفتح مشروع خاص بيا.
- عندك شقة تمليك؟

- الصراحة يا عمي، أنا ناوي أبدأ بإيجار الأول وواحدة واحدة يبقي فيه توسعات بإذن الله، وأشتري لها أحلى شقة تمليك.
- لازم تبقى زي بنت خالتها، ولازم معاها شقة تمليك، والشبكة لا تقل عن مائة ألف، أما بالنسبة للعفش فمن دمياط.
- أنا شاري يا عمي، و على قدر استطاعتي لن أتأخرعنكم .
- بس انت هكذا لن تقدر على مطالبنا !
- أنا سهم في كِنانتُك فاضرب به كيفما شئت...

على الأحرى لم يفهم معنى الكِنانة وفهم ما تلاها، فضربني ثم طردني خارجاً.

أتظن ذلك أصاب عزيمتي بالهوان؟ مطلقاً، لم يكن معاذ الرملي يتوانى عن طلب رسالته، وعن الوصول إلى آلافه اللواتي في انتظاره، وما الذي يجعلني أتهاون! فما نقول نحن بالمصري:

ياما دقت على الرأس طبول

والطبول دليل فرح، إذن الفرح آتٍ لا محالة، عليّ أن أستكمل الطريق.

- انتِ باين عليكِ جميلة جداً.
- شكراً، ده من ذوقك بس.
- عيناكِ في درب البلاغ معجمي، والثغر إلهام الفؤاد تبسمي...

حاولت أن استرجع من الخبرات القديمة، فأنا سجل دسم متحرك، ودلفنا بيتاً جديداً من بيوت المنافسة، كانت ما تزال طالبة في كلية الآداب نفس القسم الذي كنت به، فحاولت أن أستميل قلبها، فلا يبقى لها مفر مني.

جلست مع الفتاة وتكلمنا وتحدثنا قليلاً، لم آخذ مساحتي في إبداء جزءاً بسيط من تجاربي المشهود لها بالأصالة.

ولكن ما هي إلا أيام قلائل حتى جاءني رداً جديداً عجباً عُجاباً، يُصيبك بالدهشة والاتزان في آنٍ واحد، تُهاجمك مشاعر الفرح أولا فتبتهج لتلبية مطلبك ثم تُباغتك مشاعر الحزن لتجد نفسك بعيد كل البُعد عن اللحاق بموكب عِرْسانُ الأجيال التي تُعاصرها وتتبدل من سعادة وابتهاج الي صدمة واندهاش وحزن يتراكم فوقه فوق بعض و يبقي لها الأثر الدائم المستمر.

- حضرتك انت بالنسبة ليَّ قدوة وأخ كبير، أعتذر ليك جداً.
- نعم!!
- مش هقدر أشوف حضرتك بغير الصورة دي؛ لإن فيه ناس بتتكلم عنك إنك في الكلية كنت صاحب أثر ملموس مع الناس.
- طيب دي حاجة حلوة تجعلك توافقي.
- حضرتك تستاهل الأحسن مني بكتير، أعتذر ليك تاني.
- هل يُعقل أن يُترك من كان قدوة وقائد بين أصحابه بل وكان أخا كبيراً لهم!!

زويت ما بين عينيّ، أخذتني الدهشة بكل أوصافها، اختلطت عليّ المشاهد، وتبعثرت خُطايا بين الدهاليز المشتبكة، واختلطت عليّ المفاهيم!

كيف أكون قدوة -كما قالت- وإن استحسنت قولها، وفي نفس الوقت لا سبيل لي أن أخطو إليها وتخطو هي إليّ؟!

كيف تكون صاحب ميزة وفي الوقت ذاته تكن هي عين النقمة وسبب الرفض؟ أليس المفترض أن تكون لي وليس عليّ!!

ثم ما كل حضرتك التي تنسال في كل كلمة موجهة لي؟ حتى أني تخيلت أنها تتكلم بلغة واحدة مكونة من بعض الحروف ثم تختم بـ حضرتك، لغة غريبة، ولكنها أيضاً راقت لي.

لم يفتر ذلك من عزيمتي شيئاً، بل شحذني بكل قوة وعزيمة بأن أستمر، فكما كنت قدوة في نظر إحداهن فكان ذلك دليل صادق على أحقيتي في الاستمرار في رسالتي، وأخرى أخ كبير، وأخرى قد لاصقت شغاف قلبها ولكن بقيت كلمة الماديات والاتفاقات الدولية التي تتم بين الطرفين هي الغُصة التي وقفت في استكمال المسارات.

لن أتهاون أبداً في الوصول إلى بُغيتي..

ولن تضيع الآمال..

سوف أصل في يوم من الأيام، إما للفرن المناسب في القريب العاجل، أو أستمر في رحلتي إلى الألفية -إذا قدر الإله أن أحيا لهذا- أتعلم ما أشد ما يزعجني في كل هذا؟!

هو الكم الهائل الذي لا أتذكره من الهدايا والأواني المزخرفة من الشوكولا التي ابتعتها في كل مرة حتى أجد تلك العروس!

ولن يهدأ لي بال حتى أجدها..

وما زال البحث مستمراً...

فما زال في العمر بقية، ولم أصل بعد إلى العروس الألف..

أنا قادم في طريقي إليكِ..

بالمناسبة، هلا وجدت لي عَروس ذات حسن ودلال؟!
فالرحلة وإن طالت فقد أشرفت على توثيق الرسالة بعمل مُتوَج.
هلا دعوت لي.
ثواني ، لا تكن دعواتك أن أصل الي نهاية الالف ، وكأنك لا تدعو لي بل عليّ، لتكن دعواتُك بالرفاء والبنين والفرح العاجل .
لن أترك العمر كله يضيع في هذا الرسالة المزعزعة لراحتي !
بئست تلك الرسالة الألفية .

"والنور الذي في العين فليس إلا أثراً من نور القلب..

وأما النور الذي في القلب فهو من نور الله.."

جلال الدين الرومي

* * * * * * * * * * * * *

" لا أريد أن أعني لأحد شيء، إني أريد السلام، السلام الداخلي الذي يكون دون مدد من أحد، بل من الله يُسكب في القلب."

إليف شافاق

لحظةُ فِطام

ليلة الجمعة الساعة الثانية صباحاً...

حالة ولادة سريعة تدخل المستشفى، رجل أربعيني غير مرتب الهيئة تبدو عليه الفزعة، دخل ساحة المستشفى طالباً العون والمساعدة، جاهراً بصوته بأن زوجته حاملاً ويبدو قد حان وقت الوضع الآن ويريد أن ينقلها الطوارئ.

- معايا حالة ولادة مستعجلة، بسرعة لو سمحتم حد يساعدني.
- فين الحالة اللي معاك؟
- في التاكسي معايا خارج المستشفى، ممكن تجيب معاك فرد مساعد عشان نعرف ننقلها بسرعة؟
- ثواني...
- هيا، على مهلك، مش عاوز حركة مفاجأة.
- هيا أسرعوا إلى قسم الولادة سريعاً، وليستدعي أحد منكم دكتور فريد من غرفة الأطباء، هيا لا وقت لدينا الصراخ يشتد.

كان كل شيء يسير ببطء شديد، عقارب الساعة لا تكاد تتحرك قدر أنملة من مكانها، كانت تتحرك كسلحفاة تمشي وتتباهى بدرعها على ظهرها، فيا ثُقل هذه الأوقات على القلوب!

تنتظر بكل خوف وتنتظر بكل أمل، متعلقاً بين حبال الأمل، ومحبوساً في خيوط الخوف، ثقيل هو الوقت حينما تريده أن يمر ولا يمر، ويصبح في سرعة الصاروخ إذا أردت أن تنشغل في أمر يهمك.

لا ينفك عن التوتر أبداً، لا سبيل للراحة الآن، هو في اللحظة التي تمناها منذ عشر سنوات ماضية، أن يُرزق بمولود له، طوال عشر سنوات لم يرزقه الله بطفل، طالما تمناه يملأ عليه الدنيا في أبهى صورها، وها قد أتت اللحظة المأمولة، لحظة استقبال قرة عينيه التي تمناها، ظل يروح ويغدو متحركاً يميناً ويساراً، لا يهدأ له بال ولا يرتاح له خاطر.

رأى الدكتور يجري مسرعاً عليه ليدخل غرفة الولادة، فتلقاه مهرولاً إليه:

- يا دكتور حاول تلحق مراتي، ده الحمل الأول لينا، أنا قلقان جداً.
- حاول تهدى، احنا سنعمل ما في المُتاح وسوف نحصد ثمار هذا السعي.
- يا رب يا دكتور يا رب، أَصل الطفل ده جاي على شوقه، فخلي بالك عليه.

ربت الدكتور على كتفيه مع ابتسامة خفيفة، ثم دلف إلى غرفة الولادة..

كانت جلبة تختلج صدره، ينظر إلى ساعته كل دقيقة ويراها لا تريد الإسراع، فكلما أسرعت أتت إليه البشارة، متلهفاً كان للقاء مولوده الأول، مفكراً هو في شكل ابنه القادم، وماذا سوف يُلقبه؟

لم يعد موجوداً في المستشفى، سافر بعيداً ينظر نظرة للمستقبل وينغمس فيه، وما أجمل ذلك المستقبل بالنسبة له! وهل للمتشوق رغبة إلا لقاء من يشتاق إليه!

المشتاق لا صبر له، روحه العَطشة في الارتواء من ماء الحياة بالوصال.

راحت خيالاته تلعب به، ترسم له طريقاً كله ورداً وأزهاراً، حدائق ذات سعة وبهاء ومن حولها تجري الأنهار، حياة زينها بمولوده المنتظر، فُتح باب الغرفة وخرج الدكتور، هرول إليه ليستقبل منه البشارة..

- ها يا دكتور طمني؟!

- اطمئن يا أستاذ.. مبارك ربنا رزقك بولد...

وقبل أن يُكمل.

- الله أكبر، ألف حمد وشكر ليك يا رب، ألف شكر ليك يا رب.

لم يتمالك نفسه إلا أنه سجد لله سجدة شكر طويلة في ممر المستشفى، ثم نهض وأخذ الدكتور بالأحضان معبراً عن سعادته بالبُشرى التي ساقها له، ثم دلف مسرعاً إلى زوجته وطفله.

- حمدًا لله على السلامة يا حبيبتي، عاملة إيه؟

- الحمد لله، ربنا كريم يا كريم، ربنا عوضنا خير عن السنين اللي قضيناها ندعيه فيها.

حمل المولود بين يديه، اغرورقت عينيه بالدموع، أحس بمطر يهطل بغزارة على أرضه القاحلة، فيرويها رياً فتشربه الأرض في اشتياق، شمس الدنيا قد أشرقت عليه بعد ما غابت عشر سنوات عن سماءه، فأنارت ظلمته وبددت وحشته...

اشتم رائحة فل وياسمين تنتشر في أجواء المستشفى، وكأن قدومه كان قد زيّن الدنيا بما فيها، حتى تلك المستشفى التي تعج بالمرضي، موجات من النسيم أًصبحت تُداعب خديه بطلف، وتحمل بين راحتيها البلسم الشافي

والجبر المُداوي، هنا شعر لوهلة برعشة تسير في جسمه بأكمله فانتفض، ولكنه تمالك نفسه وقبّل ابنه في حب ثم تركه يخلد في نومه بجانب أمه.

كان لا يُبعد نظره عن ابنه، فهو الري بعد الجفاف، وهو العطاء بعد الحرمان، تعلق به تعلقاً شديداً، من كثرة انشغاله به، ضاعت عليه صلواته.. كان حب ابنه قد اقتطع جزءاً من قلبه، بل إن لم يكن قلبه كله، وصُرف قلبه عن أي شيء دونه.

نسي كل شيء وتذكر ابنه المولود، جال بخلده كل الأيام الخوالي، كان كل ذلك الوقت محروماً من ذرية تلمس شغاف قلبه ويضحي العمر كله من أجلهم، كم كان في شوق إلى ابن يحمل اسمه ويتفاخر به أمام أقرانه، ابن يُسعد أيامه ويُزهر أوديته، فقد اشتاقت نفسه إلى زينة الحياة الدنيا، وما أبهاها من زينة!

راح يتذكر أسئلة أقاربه وأصدقائه عنه كل فترة بأنه:

مفيش حاجة في السكة؟ أو عاوزين نشيل ولادك.

وكل هذا الكلام الذي يدب فيه الخوار والضعف، كقاتل همّ أن يزرع السكين في قلبك وقد نجح في ذلك، بل قد نجح في تسديد أكثر من طعنة إلى قلبك ليُدمي جراحاً وآلاماً، ولكن من يستمع إليه ومن يشعر به؟!

نفض عن خيالاته تلك الخزعبلات التي تنغص عليه صفو لحظته مع ابنه الذي كان حلماً وصار الآن بين يديه، ولم يكن يدري أنه يُعود إلى لحظة أخرى غير لحظة اللقاء الأول..

وما هي إلا أيام قلائل في المستشفى، طلبوا منه أن يُبقي الأم ورضيعها تحت أنظارهم بحجة الاطمئنان عليهما، إلى أن استدعاه الدكتور ظهيرة يوم الثلاثاء بعد الولادة بأسبوعين.

- لم أكن أستطيع قول ذلك في البداية غير لما نتأكد من وضع الحالة يا أستاذ كريم.
- وضع حالة إيه يا دكتور؟ قصدك إيه بالضبط فهمني!
- وضع المولود.. ابنك....
- خير يا دكتور قلقتني، ماله إيه اللي حصل بالضبط؟!
- يا أستاذ كريم، انت إنسان مؤمن بالله، وعارف إنه قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وانت باين عليك الإيمان، فأريدك أن تتماسك.
- دكتور.. ابني حصله حاجة؟
- اممم البقاء لله، ابنك كان مولود ببعض المشاكل الجينية، لم يتحمل جسمه الضعيف أن يُقاوم، وفضل يُقاوم الفترة البسيطة دي، بس ده قضاء الله وقدره، ولازم نسلم بيه.
- إيه اللي بتقوله ده؟ لا ابني عايش.. أنا شفته بعيني.. مستحيل يكون حصل له مكروه! أنتم كاتمين عني حاجة؟
- شد حيلك يا أستاذ كريم.

كانت الكلمات وقع الصاعقة على جبل فأردمته ركاماً، طلقات مندفعة اخترقت قلبه الذي كان مبتهجاً ليصير مكلوماً، رفض في البداية أن يُصدق الأمر.. راح يعترض، يثور على التصديق بأي شيء يصرفه عن ابنه الذي

تعلق قلبه به أيما تعلق، فلم يعد يرى في الوجود إلا هو.. حتى أنه صرخ قائلاً:

- يا رب ليه؟ ده أنا كنت منتظره بقالي عشر سنوات، ودي اللي طلبتها من الدنيا.

بكى كثيراً، صلى كثيراً، وانتحب حتى هدأت نفسه وسلّم أمره لله.

لم يكن في وعيه في بداية الأمر حتى تستوعب نفسه ما الذي يحدث له بعد الفرحة العارمة التي اعتلت صدره، لحظة مباغته قد قلبت الموازين كلها رأساً على عقب، لحظة أبدلته مكان سعادته شقاء، وجعلت قلبه يشعر بلوعة الفقد بعد القرب، وغُصة الألم بعد نشوه الفرح، والغيض بعد الفيض!

لم يُدرك وهو الذي ظن أن الدنيا قد ابتسمت له أن هذه اللحظة هي لحظة فطامه عن تعلقه الضار الذي كاد أن يُتلف قلبه، وماهي إلا لحظة يُفطم فيها قلبه ويُطهر من أجل بُشرى تستحق..

جرت الأيام كما تجري بسرعتها، تخبط وتيه قد تمكّن منه، إلا أن الرضا في قلبه كان محل الإقامة بعد زعزعة استقراره.

بعد الواقعة بستة أشهر.

- أما زلت تبكي يا كريم؟!

- ولمَ أكف عن البكاء؟ فالحزن أصبح صديقاً يؤنس دربي، يأتي من يأتي ويرحل من يرحل، إلا هو مازال متمسكاً متشبثاً بي، لا يبرح القلب الذي سكنه، أليس من الوفاء أن أُبقى على هذا الصديق المخلص؟ أم أطرده من مأواه؟!

- الحزن هلاك ... الحزن اعتراض على الأقدار، وما أظنك بهذا!

- لقد مكثت عمراً على أمل أن أحظي بمولود، انتظرنا طويلاً، إن الانتظار لأمر شاق.
- أعلم جيداً، أتعلم وأصعب منه جراح ألسنة الناس!!
- الفارق الوحيد اللي حسيته دلوقت بعد ما ابننا مات ومدة انتظارنا الطويلة هو إني أصبحت بداخلي حراً أكتر.
- ازاي بقيت حر؟ احنا كنا مساجين قبل كدة!
- أشعر بطمأنينة تعمر قلبي، لا أعلم لها سبباً، ولكن قد علمت بأن ما مضى يُدفع بالرضا، وأن الأيام الثقال سوف تمضي على مراد الله.

نظرت إليّ بعين شاردة، وقالت في استعطاف:

- وماذا بعد كل هذه الهزائم يا كريم؟ ماذا أردنا من الحياة؟

بعد صمت طويل، ابتسمت لها، ثم قلت في سلام واستسلام ساكناً:

" أن أقضي ما تبقى من حياتي في سلام تام، وأمضي بلا تلهف على رغبة أنتظرها، أو لمعان نجم أشتهيه يسلب مني قلبي، وبلا انتظار لحاجة تبقى موجودة تكن السبب الفعلي التي بها سأصير سعيداً وراضياً.

وفي ارتياح بدا على وجه سألها

"عارفة ممكن أبطل إيه؟! "

ابتسمت هي الأخرى من الارتياح الذى بدا في محيَاهُ واكتفت بهز رأسها أن استفيض في الحديث فكلي أذان صاغية وقلب مُستبشر.

- هبطل أنتظر.. هبطل أتعلق.. هبطل أطلب، ونمضي سوياً إلى أن نستوفي أجلنا بما كتبه الله لنا.

- ربنا كبير يا حبيبي، مش يمكن اللي كان حصل ده اختبار؟ أنا مش عارفة أطمئنك ازاي!
- لا نملك إلا الصبر علّ بذوره تنمو، ويأتي وقت الحصاد، فنقطف أحلى الثمار، والصبر إن لم ينمِها في الدنيا، لها نماء في أراضي الجنات عند رب كريم.. ربنا كريم أوي يا كريم.

ربتت على صدره في حنان، فسلم واستكان وقام يصلي ويدعو بما يختلج في صدره من هموم..

- " كان لا بد عليك أن تذبح اسماعيليك، وأن تُدرك معاني لا تُدرس إنما يتلقفها القلب المُشرق."
- وماذا كان اسماعيلي؟!
- مثلما فعل إبراهيم الخليل وامتثل لأوامر الله بذبح ابنه إسماعيل الذي جاء بعد طول انتظار.. كان عليك أن تُضحي بإسماعيلك؛ كي يتم فطامك من أغوار صدرك.. لحظة تشعر فيها بضياء قلبك يُنير من جديد..
- ولكني أمتلئ بالحزن والضيق...
- كان تعلقك الذي أورثك الحزن والاختناق، تمكنا من قلبك أصابه العتمة، فكان لا بد من تدخل الجليل ليردك عن أبواب الظلمة، وأنا هنا الآن ليظهر عندك التعليل ومنها إلى حلاوة التحصيل.
- ولِمَ كل هذا التأخير؟!
- " إن التأخير تأهيل، وفي التأهيل وصول، فاستعد إلى بُشْرَيات تأتي اليك من أبواب تُفتح لك خصيصاً علي مصرعيها، وامضِ فإن البُشرَي بشرتين، والطفل طفلين. "

استيقظ من نومه على صوت المؤذن يُنادي لصلاة الفجر، تذكر حلمه، بل تلك الرؤية الصالحة، تبسم، قفزت دمعة من عينيه بدون قصد، استبشر، قام فسجد وكبَّر، ثم سكن ونام.

لم يذكر لزوجته ما كان، ولم يقص عليها رؤيته، بل جعلها في صدره لا يبدِها لأي شخص، وإن تعددت الشخوص.

كان عليه الصبر حتى يظهر الأمر على العيان، عليه أن يرتب فوضى قلبه، حتى حينما يأتي موعد البشرى واللقاء يصبح في أتم استعداد للتلاقي.

بعد خمسة أشهر..

- أستاذ كريم، أحب أبشرك المدام حامل، مبروك.

بابتسامه مريحة بدت على ملامحه:

- عارف عارف يا دكتور، وحامل في توأم كمان.
- احنا لسه محتاجين وقت عشان نتأكد، حضرتك إيه اللي مخليك متأكد كدة؟!
- "هكذا هي حلاوة النصر بعد مرارة الصبر."
- مش فاهم حضرتك بتقول إيه؟! بس عموماً مبارك، إن شاء الله تقوم بالسلامة.
- الحمد لله وصلنا بالسلامة..

كنت في رحلة تأهيل قبل أن يمن عليّ ربي بنعمته المحيطة بي، كان لا بد من التخلية قبل التحلية، ومن التفريغ قبل التحصيل.

فالحمد كله لك يا الله.

وقف على سجادة صلاته وبدأ في مناجاة ربه وقد ترقرقت عيناه بدموع الفرح، وما أجملها دموع الفرح ممزوجة بالرضا بعدما غابت عنه لتأتي لتغمره بحنان ودفء تسكن له روحه ويطمئن له قلبه فكأنه في جنة الدنيا على الأرض فالقلب قد ذاق حقاً.. فاطمئن وسكن.

" ما لا يرتاح له قلبك لا تثق به أبداً،

فالقلب أبصر من العين. "

نجيب محفوظ

* * * * * * * * * * * * *

"القلبُ مرآة صاحبه "

محمود السمّان

قَلبي قَالْ

- الجزء الأول -

هذا هو سعيد شاب في العشرين من عمره، الولِع بالرياضة وكمال الأجسام، لعلك قد لاحظت ذلك من هذا الجسد الرياضي الممشوق القوام شديد الفحولة، لا يزداد طوله عن المتر والسبعين وبضعة السنتيمترات، ذاك السعيد اسماً ومسمى، لا بد أنك قد تحدثت معه مرة إلا وقد مدك بذلك الإيمان القوي، الذي يُشعرك بأنك قادراً على تخطي جيشاً بأكمله، وأنت قائداً لتلك المواجهة، يا لهذا اللسان المعسول الذي يسحرك بعذوبة ما يقول ويطمئن قلبك ويرشدك بكل حب إلى ما فيه خيراً وافياً وتقدماً بالغاً!

إلا أنه غير اجتماعي بالمرة، لا يأنس بتواجده مع الناس، يحب أن يتواجد في كل عمل خير، وقلبه شغوف بالاختراعات الحديثة، له حب اطلاع، من أسرة متوسطة الحال، والده متوفي منذ أن كان في الابتدائية.

هو في أغلب الأمر يكون متخبطاً المشاعر وبخيلاً في الإفصاح عنها، لا يعلم أيصف ذلك بالخجل؟ أم أنه من الرجولة ألا يُظهر ما يُكن بداخله إلى خارجه لعله يعلم!

جلس سعيد بين دفتي كتاباته متذكرا أحواله وتغير نظام تفكيره من كونها كانت في فجاج الأرضين إلى عنان السماوات، أيعقل أنه هو الذي كتب ذلك

الكلام المدون بتلك الكراسة البسيطة الزرقاء اللون؟ والتي قد اختارها بصورة عشوائية؛ ليتحدث معها بكل سبيل مقيم، وبكل سعة صدر بلا ضيق ولا تصنع ومن غير تخوّف من أحدهم.

استعجب حينما قرأ ما كتبه في صفه الثالث الثانوي في تلك الكراسة الزرقاء فبدأ، يقرأ ما قد سجله فيها منذ فترة طويلة.

غالبا لا أستمع إلى تلكم الأقوال التي يتغنى بها العُشاق مع أحبابهم.. إما كان يُثير اشمئزازي من تضييع الوقت واستنفاذ المجهود، أو ما هو إلا محاولة للتنفيس عن حالات كبت المشاعر، فتنطلق بأجنحة مرفرفة لتأخذ الجولات خلف الجولات، وكأنها كانت حبيسة سنين عجاف.

(من مذكرات سعيد في تبسيط التعقيد)

وما الذي يجعله لا يستعجب من ذلك؟ فقد مضى على ذلك الوقت خمس سنوات كانت كفيلة بأن تُغير له نمط تفكيره، وتضيف أُطروحات جديدة وأفكاراً نيرة، فلا بد أن تُؤثر عليه بشكل فعّال.

لم يكن من هُواة الحركة العشوائية غير المنتظمة، لأشد ما كان يحب أن يُنهي حصيلته العلمية من محاضرات وتطبيقات؛ ليعاود دراستها وحفظها مرة أخرى في بيته، فقد علم أن كلية الطب نعم هي كلية قمة تُقدر العلم وأصحابه، إلا أنه كان ينظر إليها على أنها كلية حياة أو موت، إنه مسؤول عن حياة أناس آخرين، ومن أجل ذلك جعل معظم وقته في التحصيل، ولكنه كان يحمل معاني الرضا في قلبه بمعاركه الصغيرة، وإنجازاته الكبيرة.

في منتصف السنة الثانية من الكلية صادف من جعل حياته تأخذ مجرى مختلفاً، أو اجعلنا نقل (صادف من جعلت) بدأت ملابسات الواقعة من قرار

أخذه بأن يتطوع في أحد الأنشطة الطلابية في كليته؛ لعلها تأتي بثمار يافعة وتكون دعماً في استفتاح طريقه وعوناً له في تكوين ذاته، ومعرفة أناساً جديدة، فطالما سمع من والدته معرفة الرجال كنوز.

هنا توقف عن القراءة، وخطفته سِنة من النوم خفيفة، وسحبته إلى منطقة فيها من البهاء والروعة التي استطيبتها نفسه حيث الجنات والعيون والنخيل والخيل المهجنة ذات الألوان الأبيض والبني والطيور المبهجة، هناك حيث كل شيء يؤثر قلبك إلى شجاعة وسعادة، تجعل منك هذا السوبر مان ذي القوى الخارقة.

استمر يتحرك يميناً ويساراً؛ حتى يجد أي مأوى له، ليجد مرشداً لضالته تلك، أي علامة تقول له فقط أنت في الطريق الصحيح.

انتظر قليلاً، عليك أن ترى الجمال بعين قلبك وليس بعينيك الظاهرتان، عليك أن ترى الحق الواضح، وليس من أمام السِتار.

التفت إلى مصدر الصوت، حيث كان في الحديقة البهية والمساحات الرطبة الندية، ليجد والده -رحمه الله- يخاطبه، لم يصدق نفسه أن ذاك حلم أم أنه في درب من الخيال يبعده عن واقعه!

لم يدر ما الواجب عليه فعله الآن، مجرد أنه تحرك بعزم ما فيه؛ ليحتضن والده بكل شوق وطمأنينة له، لم يجد ذلك الاحتضان الدافئ منذ أمد، منذ عقد قديم، نعم إنها تلك اللحظة التي اغرورقت فيها عينيه بالدموع وما زالت البسمة تعلو ثغره، تدل على مزيج من المشاعر الذي يعصف به بنسب متساوية في الاتجاه تقريباً، فيظهر أثرها كل على حِدة في نفس الوقت.

هنا أعاد عليه الوالد نص حديثه؛ حتى يذكره به ماسحاً على صدره في بسمة حانية:

فليطمئن داخلك يا بُني، ولتسمع جيداً لما يقوله لك قلبك هذا.

أفاق فوجد نفسه على الوضعية السابقة في بيته وعلى مكتبه، فاستراحت سريرته وتبسّم في رضا، وعاود من جديد ليكمل القراءة.

اتفقا سوياً أن يقوما بحملة توعوية ضد أحد أشهر الأمراض في أحد النوادي في مدينته التي يقطنها، بدأت فاعليات الحملة، وأحس حينها بأن الدماء تُضخ في جميع أوردته وأن قلبه قد ازدادت نبضاته، ولكنه مع كل هذه الأعراض التي لم يجربها من ذي قبل، إلا أنه كان لديه شعوراً بالأمان والراحة حينما كان يحادثها، كان يشعر بتدفق هرمونات السعادة، ليس فقط في خلايا دماغه، بل في جميع خلايا جسده.

توالت المحادثات وأصبح كل يوم عن اليوم الذي يليه ممتلأ بالنشاط يسري في أوصاله طاقة لا يعلم مصدرها ولكنه يحبها، حتى أنه صار يحب الشِعر وبحوره من أجلها، فذهب يصول ويجول في أعماق بحوره.

فتذكر موقفه وهو يتمعن الذي كتبه في كراسته الزرقاء، إلا أنه أقنع نفسه قائلاً:

مع تزامن تلك الإيجابيات في مطلع لقاءها فلعلها نعمة ورزق قد سيقت لي، حتى أنه أسماها فرحة دليلاً على فرحته المتدفقة بلقائها، وبما أنها سبيل الفرحة في جميع الأحداث في حياته.

قالت له رافضة الولوج في مزيد من الأحداث، يبدو أننا قد تسرعنا الخُطى وأني لم أنظر إليك نظرة الحبيب، بل نظرة الشهم الشجاع الذي يأتي في الوقت المناسب، ولكن صدقني ليس هذا علامة شيء إطلاقاً، فعذراً.

أتى القول على قلبه وقع الصاعقة المفاجأة...

حاول مراراً معها، ولكنه لطالما وجد الباب موصوداً.

حَزن في بيته أيامًا.. أيضيع الإخلاص هكذا!!

لقد أحببتها حقاً، نعم لقد صدقتي أيتها الكراسة الزرقاء.

ودوّن مقولة أخرى في كتاباته من ضمن الأحداث التي أثرت في حياته، والتي كانت تُعبر عن حاله في تلك الفترة التي يمر بها.

الحب زهرة ناضرة، لا يفوح أريجها إلا إذا تساقطت عليها قطرات الدموع.

وراح ها هُنا يبكي مثل الطفل الذي أُخذ منه لعبته التي كان يحبها.

وقد أدرك بعد حين أنه كان يحب اهتمامها به، وكأنها مغناطيس تجذب إليها من هو على استعداد، وقد انجذب مثلما انجذب الآخرون، وفهم أنه هو لم يختَر جوارها، بل إنها هي التي صنعت الحجج والمبررات؛ لتجعله ينجذب إلى قوة تأثيرها، وأدرك أنها مرحلة وسوف تنقضي إلى حال سبيلها.

اتفق مع نفسه أن يأخذ طريقاً جديداً، فيه من الإنجازات والمعالم ما يجعله يزدهر من جديد.

أصبح في مجال نشاط التطوعي يلقبونه بـ الفنان فقد أبدع في عدة زوايا واتجاهات، وبدأ يندمج بقوة ويظهر فكره المؤثر وعقله المبدع حقاً، إلا أنه قد ابتعد قليلاً عن حلمه الأول وشغله الشاغل دراسته، لكنه كان يحاول دوماً أن يوازن بينهما.

هل أستميحك عذراً يا فنان أن تُساعدني في هذه المهمة؟
قالتها له إحدى الزميلات، ولكنه تردد أن يجيبها، فقد عزم على السير منفرداً، ولكنه حاول جاهداً أن يحافظ على مشاعره، ولكنه وقع في شباك العنكبوت.
رأى فيها روحها المشرقة وقوة التأثير والشغف مثل ما هو شغوف، وبدأ يتزايد معدل قياس الحب لديهما قد ارتفع إلى أقصى ارتفاع، كان يحب فيها اهتمامها الزائد به، إصرارها على اختياره هو، ضحكاتها وتلقائيتها معه.
كما رأى من ذي قبل تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.
وها هي سفينة حياته قد عصف بها الريح في مكان سحيق بعيداً عن المنال، بدأ يشعر بالبعد من تجاهها، بدأت تأخذه الحيرة والتعجب، حينما حاول أن يُصارحها برسالة وليس وجهاً لوجه، كان ردّها كالسهم المُنطلق ليصيب به منتصف الهدف، كان خلاصتها بأنها تفعل ذلك مع الجميع، وليس له مكانة خاصة كما زعم.
لم يكن يعلم ما الذي يتوجب عليه أن يفعله؟
أيُعقل أن تصدق تلك الكراسة في كل مرة، أم أن العيب واقع فيه؟!
وأن فيه عيباً يجعل كل من يتقرب منه ينفر منه بعد حين؟!
لعل كل شيء ينتهي بالتاء المربوطة لا يتجاذب مع بوصلته، فيحدث انجذاباً خفيفاً، إلى أن تتنافر الشحنات إلى أبعد حد، كان يتمنى أن تكون تلك المرة هي النعمة التي طالما قد تمناها.. هي التي من الممكن أن تعوضه عن قسوة ما قد صدمه من ذي قبل.
انتفض سعيد وأخذ في هدوء نفساً عميقاً يريح به أنفاسه التي قد أصابها الإرهاق، تذكر تلك المقولة التي تصف الحب بقولها:

الحب كالحرب، من السهل أن تشعلها، من الصعب أن تخمدها.
والآن أصبح يفهمها عن ظهر قلب وواقع حدوث، شرد بخياله لماذا حدث تلك المرة بعد عهده الأول مع نفسه؟!
وحينها توصل إلى نتيجة غيرت له رؤيته بشكل قطعي، فبعد ما أمعن النظر والتفحص في أسباب ذلك تخلص إلى ما هو مفاده بأنه كان يحاول أن يُثبت لنفسه بأنه ما زال باستطاعته أن يحب، وأن يتم تجديد تدفق الدماء في أوردته، أي أنه أراد أن يطمئن على نفسه بأن قلبه ما زال ينبض، بأنه يتحرك في مكانه، ولكنه أحب أن يشعر بتحركه بقوة أكثر، أو أراد أن يُثبت إلى حبيبته سابقة العهد بأنه استطاع الاستغناء عنها، وقد أقبلت عليه الحياة فاتحة ذراعيها على مصرعيها، وتعلو وجهها أجمل ابتسامة.
وقد وضع أقوى نظرياته عن الموضوع بأنه هو الذي لم يكن يختار ذلك، لم يختَر أحد منهما.. لم تتحرك مشاعره تجاه أحد منهما، بل جاءت له على الرحب والسعة حينما رأى منها اهتماماً فائق المكانة وجميل الصورة، فحين رأى الأمر بسهولته تلك فأراد أن يُكمل؛ ليأخذ من حلاوته، ولم يخطر بباله بأن السهل في الحصول سهل في الفقد..
فإنه لم يُحفر بداخلك بكل نقطة عرق سقطت على جبينك، وكل عضلة خضعت للانقباض بعد الانبساط، وكل مجهود بذلته وبكل نفس تحاملت به المشاق، ولكنه في النهاية هو لم يختَر، بل وقع عليه الاختيار، فحاول أن يتأقلم مع ذلك ويحب ذلك مستنداً على رغبته في لعلها تكون نعمة.
ولم تتحقق تلك الرغبة...

انتهى الأمر عند حده الآن، وقد وضعت الحرب أوزارها، ولم يكن بالعدة والعتاد أو الاستعداد الراسخ الذي يُعطي له فرصة للبدء من جديد، آملاً أن يُنفذ ما تطرق إليه من حكمة بعد ما مر بتلك التجربتين.

قد انتصف وجوده في كليته...

أصبح كل شيء بالنسبة إليه أمراً عادياً لا يلتفت عن طريقه كثيراً، إنما هو يُطبق ما يتعلمه في انسجام ومتعة وزيادة في العلم...

قد أنهى أي فكرة من الممكن أن تنبعث إلى رأسه، تجعله من المحتمل أن يفكر أن يُجهز العدة والعتاد لخطوة تحمل الجرأة في الإقدام عليها الآن لأي اسم يحمل معناً مؤنثاً.

علم أن حياته ما هي إلا محطات، وكل محطة تُسلم إلى التي تليها؛ ليرى بنور في كل محطة حتى تتسع مداركه إلى حكمة بالغة، لم تكن تأتي إلا من خلال الانخراط في المحطات واحدة تتلو الأخرى؛ ليأخذ منها النور الذي يساعده على السير في طريقه المستقيم، وأصبحت محطاته كلها الآن تعليمية فقط، ليشرب ويتعلم من بحور العلم.

لم يكن ينوي أن يفتح أبواب قلبه إلى أي أحد، هو فقط يعطي من كل قلبه ويتعلم ويُعلم ويسير مؤثراً فيمَن حوله، فبعد أحد الاجتماعات والتي قرر من قبل أن يتولى إدارة نشاط طلابي قال في نفسه -بعدما استكثر حركة نشاطه- يكفي بهذا القدر ولأبحث عن حب صادق اختاره بنفسي، في لحظة خروجه إذ به يلمح منْ...

أين باقي الصفحة...

أيتها الكراسة الملعونة أنتِ، كفاكِ من ألاعيبك تلك قد كرهتها..

نعم نعم...

قد تذكرت في السنة الماضية قُطعت تلك الورقة التي أكملت فيها باقي الكلام، يا ربي أين وضعت تلك الورقة؟ إنها تحمل صراع الأحداث والنقطة الفاصلة، أيتها الكراسة ألم يكفِك أنكِ جامعة أسراري وتطور نفسي وجروحي كلها!

لم يتمالك سعيد نفسه من هذه الكراسة الخرساء، فأخذها في عصبية؛ ليُلقِها على الأرض.

ولكنه تذكر شيئاً مهماً، لعل هذه الورقة الناقصة في مكتب جدي في الدور الأسفل، هنا هرول ليفتح باب الغرفة مستقبلاً الدَرج، لينزل إلى الدور الأرضي؛ من أجل أن يبحث عن تلك الورقة.

انتفض يُفتش هنا وهنا حتى غلبه الإرهاق، فجلس على الأريكة يلتقط بعض أنفاسه، وأخذ يتساءل.. ما هي تكملة التفاصيل الصغيرة؟ فإني أعشق التفاصيل، بما أنها توضح التنقلات إلى الإنجازات الكبيرة.

ولكن ثواني...

قام من مكانه كمَنْ أنارت في وجدانه نور مُباغت، فانصدم على إثرها فتحركت خلاياه بتجاه هذه الإنارة، فتح الخزينة السفلية فوجد ملفاً من الأوراق، وأخيراً وجدها بداخله، أعاد كل شيء إلى موضعه من جديد، وعاود أدراجه إلى مكتبه العزيز؛ ليُكمل رحلته في هذا العالم الأزرق، لعله يخرج منه إلى الإشراق.

فعادت تُكمل الكراسة له، وتفيض عليه حديثاً مفصلاً، وقد أعادها أمامه على مكتبه:

منْ أشرقت لها الشمس بقدومها و تفتحت لها الزهور لتنشر روائحها وتغنت لها العصافير بعذوبه أصواتها.

كانت تلك النظرة الأولى التي قد رآها فيها، ولكنه شعر أنه يعرفها من ذي قبل بكثير، ولكنه تروّى قبل أن يأخذ أي فعل، وتساءل: هل ستنفك هذه المرة عقدة الكراسة الزرقاء أم ستفرض سطوتها؟!

انتظر قليلاً، ولكنه كان انتظار ثقيل على قلبه، لم يستوضح من قلبه مقولة واضحة، فانتظر كثيراً علّ أن يفصح قلبه بمكنونه!

شعر تجاهها بانجذاب جميل في معانيه، لا هي فرضت نفسها عليه، وإنما هو الذي اختار، وهو الذي قد قرر أن يتقرب وأن يُحقق حلماً قد بات يُراوده.

سأل عليها صديقاتها المقربات، فكانت تلك هي صدمته الكبرى، إنها تكبره بعام، يا لها من فاجعة!

هو لا يخشى شيئاً، هو يعلم فقط أنه يحبها بوجدانه النقي وفقط، وليس هذا الذي يجعله يغير رأيه، هو فقط يخشى أن تراه يصغرها فتمتعض وترفضه كلياً وموضوعاً، تنهد قليلاً يسترضي نفسه بألا تكون العادات والموروثات تلك التي قننت كل شيء في عرفها الخاص لا تناسبه قد أصبحت فرضاً، عليه القبول به!!

وحين ذلك بدأت تسأله بين الفينة والأخرى عن بعض الأمور الخاصة بإحدى المؤتمرات العلمية التي حضرها من ذي قبل، وكيف يساعدها فيها؟ قد تجاوب معها بشكل كبير، كما يقولون -جات لك على الطبطاب- ويا لها من فرصة لا تتكرر؛ لتوطيد الرواسخ التي يسعى إليها بكل حماس.

فكما كان يحدثه جده بأن الفرص إذا أتت للإنسان عليه أن يدقق النظر فيها، وألا تنفلت من تحت يديه، ثم شدّد بأن الفرص لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، وانت وشطارتك!

لم يكن لينسى ذلك المثل الذي ذكره له جده في نهاية قوله ساعة الحظ لا تُعوض فابتسم وأحس أن ساعة حظه قد أتت الأن.

ازدادت بينهما الصلة والمحادثات، أحبّ فيها كل ألوانها بكل حال تقع عليه عينيه و يراها قلبه بمكنون دافئ بمعني يحتضن الحب لها، لم يكن حباً بدافع الاهتمام أو سد فجوة لديه، أو ليُثبت لأحدهم بأنه يَحب ويُحب..

بل كان حباً صادقاً بكل ما حفر فيه معاني الإخلاص ومعاني السماحة، وحينها أصبح سعيدُ سعيداً فهو اسماً على مُسمي، ولكنه كان يخشى أن يُحادثها به، ولما قرر ذلك وذهب إليها في مكتبة الكلية فانتظرها فغلبه النُعاس، وحينما قام فزعاً يبحث عنها لم يجدها، وكأنه طفلاً صغيراً قد طردته أمه من البيت يتخبط هنا قليلاً وهناك البعض الآخر بلا إرشاد وبلا غنيمة تُذكر، علم فيما بعد بأنها قد أتت ولم تره، فذهبت إلى حيث لم يرَها مرة أخرى، فقد سمع بخبر سفرها المفاجئ بعد بضعة من الأيام على تلك الواقعة.

واختفت فترة، وهو ما زال يتذكرها، وما زالت هي في قلبه.

وسأل نفسه لمَ هي؟! لمَ كل هذا؟!

وجد قلبه يحدثه في ثقة وفي يد حانية قال له:

- لأنها الوحيدة التي أضاءت عتمتي نجومها حينما أريتها ظُلمتي، وهي الوحيدة القادرة على استيعاب كل هذا الوحش الغاضب ليُصبح حِملاً وديعاً، والأم الحنون التي تحتوي ذلك الطفل المشاغب الشقي الذي يظل

يلهو ويلعب ولا يهتدي سبيلاً نيراً بدون أحضان أمه، لأنها النور وقت الشفق الذي ظلّ يُداعب خيالاته ويُرتسم له في جميع أحلامه فإذا بالحُلم أصبح فيه شاهداً ومشهوداً علي تحول الحُلم الي حقيقة عذبة يراها بأم عينيه، لأنها رُّوحٌ طيبة قد لامست روحه ف الرُّوحُ في الرُّوحِ تُقيم فلا سبيل لانتزاعها .. كانت في وجودها مريحة الي حد الاستكفاء ...

بعدما تنهد تهنيده طويلة سَمع عمقها وأغمض عينيه ثم قال :

- ببساطة لأنها فقط هي بكل ما فيها.

فكّر كثيراً وحزن أكثر، ولكنه رضيَ بأضعاف ما حزن..

أيتها التاء المربوطة ما بكِ؟!

هلا تخبريني من فضلك، أعيب أستحق عقوبة عليه أم أنك تتخذين موقفاً عدائياً معي من باب العناد وفقط؟ علم حينها ما عليه فعله، وعلم أن الحب الصادق موجود، ولكننا علينا ألا نستعجله وبعد أن حمد الله قال: يا ليتها كانت منة.

وظل على أمل عودتها، وأمل اللقاء المنتظر.

هكذا كانت آخر الكلمات في هذه الكراسة المشؤومة، كاد يود أن يطرحها أرضاً ويتخلص من هذا الشؤم المتحامل عليها، إلا أنه تراجع، وكيف وهي التي احتملت كل ما في داخله واستمعت له مراراً وتكراراً؟ والآن يبعدها ويتركها! ثم ألم تكن هذه الورقات التي سمحت له بإنارة فكره، وأن تُقام أمامه المفارقات المنطقية؛ حتى يتعلم منها ومن توافد الوفود عليها، لتزداد هي ثقلاً، ويزداد هو إيماناً ونضوجاً! فلن يُلقيها هذه المرة.

على العموم مكانك أيتها الزرقاء اللون في دُرجي العتيق، فهيا إلى موقعك فلن يشغله غيرك، شكراً لكِ أيتها الزرقاء.

رجع بظهره قليلاً على الكرسي؛ ليسترح قليلاً، ناظراً للسقف والبسمة تعلو ثغره، وأخذ نفساً عميقاً، وتذكر تلك المرة التي حكى فيها قصته إلى صديقه الصدوق، ليأخذ من بعض الراحة النفسية أكثرها.

فابتسم صديقه وأربت على كتفيه، وقال له:

- مهلاً يا رفيقي، فلتصبر، ومع بعض القوة وعن قريب نجمك بالسماء سوف يلمع.

كم لمست تلك الكلمات أذان قلبه، ليرى بقلبه ويتدبر بعقله!

سمع صوتاً يناديه بعد ما استأذن في الدخول عليه مكتبه:

- يا سعيد قد تجهزت كما قلت لي، إلى أين وجهتُنا؟

قالتها في صوتها الحنون العذب الساحر، لدرجة أنها كررتها مرة أخرى على مسامعه؛ لأنه كان ينظر إليها وقد ظهرت نواجذه وأسنانه البيضاء.

ما بك! لمَ تنظر إليّ وتبتسم هكذا! ألا يُعجبُك فستاني؟!

دار في خُلده أن قلبه يقول له في كل مرة مشاعر مختلفة وأماني نيرة، كان عليه أن يستمع بكل وعي عقله إلى ماذا يُحدثه قلبه؟!

ذهب بذاكرته إلى قول والده الذي ظل محفوراً في صدره حينما وضع يده على صدره في كرم الأب وحكمته، قائلاً:

فليطمئن داخلك يا بُني، ولتسمع جيداً لما يقوله لك قلبك هذا.

قال في حنان يتغنى به معها ومعها هي فقط:

هيا يا رُّوح الفؤاد، يا مَنْ أشرقت الظلماء بحياتي، إنك جعلتني استغنى عن تلك الزرقاء، حقيقي تمنيتك من الله والحمد لله بأنك أنتِ أنتِ .

قالها لزوجته وهما يهمّان بالخروج من منزلهما في السابعة مساءً؛ لكي يحتفلا بعيد زواجهما، فكيف له أن ينساه وهي كانت سر سعادته فليكن سعيداً اسماً وصفة يُطبقها في حياته، ويوم تستعيد فيه نبضاته المبهجة من جديد.

هيا أيتها الملكة، فلتتقدمي الساحة، ولنفرش لك الأرض ورداً يا صاحبة الورود، أليس الوردُ للوردِ!

بـالقلب نُـحب..

وبـالعقل نكره..

وبالاثنين نُصاب بالجنون!!

جبران خليل جبران

* * * * * * * * * * * * *

"يصنع الفقر لصوصا، كما يصنع الحب شعراء"

مثل هندي

الصالون الثقافي

مع دقات الثامنة مساءً فُتح ستار المسرح بانسيابية خفيفة تُمهد إطلاق العرض المسرحي المُشوق المنتظر والأصوات هادئة تماماً، تسمع صوت الإبرة الرنانة إذا وقعت على الارض فتسمع لها الصدى، والجمهور كأن على رؤوسهم الطير، أو بالأحرى في لحظة ترقب شديدة لما سوف يظهر على خشبة المسرح؛ تلهفاً لرؤية المشاهد الدرامية، فيملؤوا الأرواح بنسمات الفن وضحكات تُنسيهم هموم حياتهم.

هذا الصمت الممزوج بالسكون المخيف ومع ظلام الأجواء؛ حتى تتسلط الأضواء فقط على خشبة المسرح.

مع تتابع فتح الستار وظهور المسرح وما يخفيه من خبايا غامضة، تم إزالة الغموض الذي كان يُساور الجمهور، وفُتح الستار بأكمله، في أول لقطة توجّهت الأضواء على جميع زوايا المسرح، همّ الجمهور بالتحية وتصفيق طويل لأبطال المسرحية، وهم بدورهم قاموا بتحية الجمهور، دلالة تقدير، وانتهى التصفيق لبدء المسرحية بعنوان نظريات في الحب.

ظهر لأول مشهد من فصولها ثلاثة من الرجال متوسطين منتصف المسرح، وكل منهم له هيئة معينة تدل على الشخصية التي يؤديها في هذا النص، وقد كُتبت لوحة معلقة في إحدى زوايا المسرح بعنوان الصالون الثقافي.

- النهارده في الصالون الثقافي ستتكلم عن الحب وسنينه، قولنا أنت أيها المُفكر الفيلسوف، ما رأيك في الحب؟

قالها أحدهم بعد ما توجه إلى المربع الأيمن من خشبة المسرح.

- أنا لا اعترف بشيء اسمه الحب، ده كلام احنا بنقوله بس عشان نحس بنفسنا، وعشان كل واحد بيبحث عن نظرات الرضا في عيون اللي حوليه وعاوز يحس إنه محبوب.

أجابه صديقنا الفيلسوف بكل رفعة، وقد أصرّ على رعونته.

- يبدو أنك أيها الفيلسوف سوف تُؤرقنا وتصدع أدمغتنا بتلك الآراء الخائبةالتي تتبناها .

ثم سكت قليلاً، ثم عاود سؤاله:

- لِمَ كل هذا الافتراء على الحب؟ هل ذقت مرارته فأحببت أن تُعمم القضية على الجميع! الحب هو أجمل نسمة ممكن تيجي على قلبك، وردة ليها أطيب الروائح وموسيقى ساحرة تناغشك وتطربك.

توجّه الفيلسوف إلى وسط الخشبة، ثم أشاح بوجهه قائلاً:

- بالطبع سوف يصدر منك هذا الكلام، لا لوم عليك ولا يُعاب من هم أمثالك على سطحية مشاعرك تلك، فأنت من الشعراء، وتقتات لقمة عيشك من الكلام المعسول، وما الشاعر إلا عن مخزون من المشاعر المتدفقة التي تزعجنا بين الفينة والأخرى. أو بالأحرى كما قال أفلاطون: كل إنسان يصبح شاعراً إذا ما لامس قلبه الحب.

نظر إليه الشاعر في نظرة حنق، وأراد أن يهم بذلك المتعجرف، وأن ينال منه ويبرحه ضرباً مبرحاً؛ ليعلمه من هو متصيد المشاعر، وليريه من مخزونه، إلا

أن ثالثهما الذي انطوى في سكوته سامعاً الحوار منذ بدايته، انطلق إليه ليدفعهم بعيداً عن بعض.

- اتركني أفتك بهذا المغرور.. لمَ يعيب مشاعرنا هكذا؟
- اهدأ قليلاً، ليس هذا من سمات الشعراء والفنانين أمثالنا.
- لا شأن لك في هذا، قلت لك دعني.
- اتركه.. اتركه إنه ذو تفكير أخطبوطي مُتقشر يتأثر بسفاسف الأمور.
- هلا نظرت طريقته في الحوار، إنه يدفعني إلى أن أتعصب!
- كُفا كلاكما عن هذا الشجار المتعفن، فلا يليق بتاريخ هذا الصالون المحترم، ولا يليق بأشخاص أمثالكما، لهما من الوقار والرزانة، التاريخ لم يشهد مثل هذا النوع من الصراعات الأدبية.
- أنا فقط أقول رأيي بكل وضوح، ولا أحد له رأي يفرضه عليّ، هكذا علمتني الفلسفة، ثم أنت الآخر تظل تذكر لنا التاريخ والحكايات، وكأن لم يدرس التاريخ غيرك.
- التاريخ يحكي كل حاجة، يقول لك التفاصيل ويجعلك تشوف المستقبل.

ردّ المؤرخ على الفيلسوف، ثم صمت قليلاً بعد ما فرق بينهما، وهذا الصراع الناشب بينهما.

أخذ نفساً عميقاً وتوجه متحركاً إلى منتصف المسرح، وقال يُخاطب كليهما:

- كل واحد منكما له وجهة نظره، يمكن تكون صح ويمكن تكون خطأ مش انتم متفقين معايا في النقطة الفكرية دي؟

رد الفيلسوف بكل عنجهية:

- الصواب والخطأ شيئاً نسبياً، لا يُشترط مطلقاً إثبات شروط لقبوله فكما هو معلوم، رأيي صَوابٌ يَحتَمِلُ الخَطأ، ورأي غَيري خَطأ يَحتَمِلُ الصَّواب، وأضيف النسبية لا تعني أن لدينا الحق في أن نقلب العالم رأسًا على عقب بخبث.
- تمام، فهمنا عنك المقصد، وأنت أيها الشاعر؟

قال:

- هذا الصبح ليل.. أيعمى العالمون عن الضياء! فيما معناه: هب أني قلت: إن هذا النهار ليل! أيعمى العالمون عن ضياء هذا النهار؟! لا يعمى مطلقاً، فأنا أقول رأيي عياناً بياناً، لا أهاب أحداً.
- هذه نقطة اتفاق إذَن لا خلاف بيننا، إنما هي اختلافات من وجهات نظر كثيرة من خبرتي وخبرتك، وشعورك وفلسفتك.

حركا رأسهما موافقين على كلام المؤرخ، وهدأت العواصف بينهما.

- هل سنظل واقفين هكذا في نقاشنا؟ ما زلنا في بداية المسرحية، وأمامنا فصول كثيرة.

قالها الشاعر بأسلوبه الفُكاهي.

ضحكت الجماهير على إثرها، وسُمعت بعض الهمسات داخل القاعة.

- إذَن هيا بنا نجلس سوياً، ونحتسي سوياً قهوتنا المفضلة، وكلٌ منا يتولى الإفصاح عما يرتع بداخله، وله منا كل السمع والتقدير.

ساقها المؤرخ إليهما وهو يضع يديه على كتفيهما، ويتحرك بهما إلى شمال المسرح، حيث طاولة وثلاثة كراسي حولها.

- هيا من يبدأ ومستعد لـ يأخذ أول شرارة في نقاشنا؟

افتتح المؤرخ المشهد.

- دعني أنا أحدثك عن جمال الحب ومشاعره الفياضة، كبحر من الخيرات قد فاض وغرق قلبك في شربة مية، بل في فيضان نهر.

خطف الشاعر سخونة الحديث الأول في تلهف ومثابرة.

- لك ما أردت.

- وهل هناك أجمل من ذلك الشعور الذي يُدغدغ روحك ويداعب حجرات قلبك ويسري في عروقك فتشعر بانتفاضة لرؤية محبوبك؟ ذلك الشعور الذي يختلج في صدرك، ضربات قلب متسارعة، رعشة الأطراف، توهج الوجه، تلعثمك في النطق والكلمات، إقبالك بقدم وتتأخر بقدم أخرى.. هذا التخبط الحلو الذي يهد كيان الجسد، يشدو مرحاً بلقاء المحبوب وفقط، فأنا حينما أحب أقول لمحبوبتي

- أحبّك بكل ما أملك، ولا أملك يا عمري سوى حبّك، حبك الذي هنّاني وأرداني، حبّك الذي أسعدني وأشقاني، حبّك الذي قتلني وأحياني، أحبّك بكل المعاني.

ضحك الفيلسوف ضحكة خبيثة، ثم ردّ كمَنْ وجد ثغرة يرد بها على مُدعيه:

- ولكنك بهذا الجاني والمجني عليه، حُجَتك عليك يا عزيزي وليست لك، كل تلك التخبطات التي ذكرتها إنما هي تهمة للحب لا تقع في صالحه، الانجراف وراء مثل تلك المشاعر تهد كيان الجسد، ليعلن عن قيام معركة كبرى، لا بد أن يفرز فيها كمية لا بأس بها من الأدرنالين، فيُضخ في أنحاء الجسد، فيصيب الجسد نبضات غامضة تعلن أن هذا الإنسان في خطر محدق، وأن المكان الواقف فيه ليس أماناً على الإطلاق، لا بد له من

الهرب في أسرع وقت ممكن، إن مثل تلك الحالات التي يُفرز فيها الأدرينالين في الجسم كمثل تلك الحالة التي يخرج وراءك أسد مفترس يركض خلفك..

- هل رأيت نفسك حينها ما أنت بصانع وكيف هيئتك؟!

ثم في ثقة كمَنْ انتصر في النقاش أشعل غليونه، ثم أخرج أول زفير له أمامهما...

- هذه صورة أولية في اللقاء بين المحبوبين وليس كامل العلاقة، الحب يا عزيزي الفيلسوف ما هو إلا هذا الحب الذي جعل الأمير هاري، ذلك الأمير البريطاني يتخلى عن العرش من أجل الحب، أليس هكذا يحكي التاريخ؟!

ثم توجه تلقاء المؤرخ راغباً منه أن يُصدّق على كلماته.

- في التاريخ وحتى أكون مُنصفاً لوقائع التاريخ وأبطاله الخالدين، في وقائع كتير تدل على تفضيل اختيار الحبيب دونما عن أي شيء آخر، وبالفعل مثلما قلت، وأيضاً تنازل الملك إدوارد الثامن رسمياً عن العرش البريطاني.. معقباً:
- لقد وجدت أنه من المستحيل تحمل العبء الثقيل من المسؤولية وأداء واجبات الملك دون مساعدة ودعم المرأة التي أحبها
- التاريخ يؤكد تلك القضية بالفعل، كل التضحية لا تساوي لحظات المكوث مع الحبيب، ولا النظر في وجه أو رؤية ابتسامته.
- هل سمعت يا هذا يا منعدم أيدلوجية الحب؟!
- الحب أجمل شيء على الإطلاق.

وانتفض الشاعر من مقعده إلى منتصف المسرح، وقال بكل ما فيه من عزم:

- أيا امرأة تمسك القلب بين يديها، سألتك بالله لا تتركيني..
- لا تتركيني، فماذا أكون أنا إذا لم تكوني؟ أحبّك جداً وجداً وجداً، وأرفض من نار حبّك أن أستقيل، وهل يستطيع المُتيّم بالعشق أن يستقل؟ وما همّني إن خرجت من الحبّ حيّاً، وما همني إن خرجت قتيلاً.

انتظر الفيلسوف الشاعر إلى أن يرجع مكانه، ثم أخذ نفساً من غليونه وقال:

- من الواضح أنك تهيم متيماً في الحب يا هذا، ولكن الحب هذا يُذهب لُب الرجال.. يجعلهم كالأطفال في انتظار أمهاتهم حتى تضع لهم الرضعة في وقتها المناسب، الحب ضعف حين لا تستطيع أن تفعل أي فعل أو تخطو أي خطوة حتى تُنقذ محبوبك إذا وقع عليه الخطر أو أصابه مكروه، الحب هو ذلك اعتصار القلب من الألم حينما تفترق عن محبوبك، فيصيبك بالوهن والضعف، الحب الخذلان حينما تضع ثقتك في أحدهم، ثم يتخلى عنك أو يتركك في منتصف الطريق، فيعتصر قلبك وتنطفئ روحك، لا حاجة لي بهذا الحب الذي يُذهب عني روحي، وتكون العاقبة ميتاً، ولكن فيّ الروح، الحب الحقيقي هو أن تحب الشخص الوحيد القادر على أن يجعلك سعيداً.
- هؤلاء الذين تحكي عنهم لم يذوقوا حلاوة الحب وصدق مشاعرهم الحقيقية، فلو علم الحب مكانهم لهرب منهم؛ لأنهم لا يستحقون ذلك الشعور مطلقاً.

سكت ملياً كمن يبحث في عقله عن مستند هام يثبت صحة أقواله، ثم قال في ثقة وإقبال:

- إنما الحب قصيدة تُطربك معانيها، يخرج منابعه من أعماق القلب.. ويضيف العقل براعة التفصيل في الأوزان والقوافي فيضيف الجودة والإجلال، الحب الذي ألهم هوميروس الإلياذة.. أخلد شعر على الأرض، الحب هو نزار القباني حينما أنشد أشعاره الحب يا حبيبتي قصيدة جميلة مكتوبة على القمر.. الحب مرسوم على جميع أوراق الشجر.. الحب منقوش على ريش العصافير وحبات المطر.. لكن أي امرأة في بلدي إذا أحبت رجلاً تُرمى بخمسين حجر.. وبرغم الريح وبرغم الجو الماطر والإعصار، الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار.
- وبحماس متزايد دبّ في عروق الشاعر، همّ واقفاً متجهاً للجمهور، وأنشد قائلاً لنزار:

يا سيّدتى: كنتِ أهم امرأةٍ فى تاريخى قبل رحيل العامْ.
أنتِ الآنَ.. أهمُّ امرأةٍ بعد ولادة هذا العامْ..
أنتِ امرأةٌ لا أحسبها بالساعاتِ وبالأيّامْ..
أنتِ امرأةٌ.. صُنعَت من فاكهة الشّعرِ.. ومن ذهب الأحلامْ..
أنتِ امرأةٌ.. كانت تسكن جسدى قبل ملايين الأعوامْ..
يا سيّدتى: يا المغزولة من قطنٍ وغمامْ.
يا أمطارا من ياقوتٍ.. يا أنهارا من نهوندٍ.. يا غاباتِ رخام..
يا من تسبح كالأسماكِ بماءِ القلبِ..
وتسكنُ فى العينينِ كسربِ حمامْ..

لن يتغيرَ شيءٌ فى عاطفتى.

. فى إحساسى.. فى وجدانى.. فى إيمانى..

فأنا سوف أَظَلُّ علي دين الإسلامْ..

يا سيِّدتى: لا تَهتّمى فى إيقاع الوقتِ..

وأسماء السنواتْ أنتِ امرأةٌ تبقي امرأةً..

فى كلَ الأوقاتْ. سوف أحِبُّكِ..

عند دخول القرن الواحد والعشرينَ..

وعند دخول القرن الخامس والعشرينَ..

وعند دخول القرن التاسع والعشرينَ.. وسوفَ أحبُّكِ..

حين تجفُّ مياهُ البَحرِ.. وتحترقُ الغاباتْ.

صيحات وتصفيق من الجماهير في القاعة تحية للشاعر على قصيدته وعلى أداءه، فانحنى لهم هو الآخر بدوره؛ مُحيياً إياهم.

- هذه تسمى يا عزيزي نشوة الحب الخادع، كمثل الغيث الذي يُعجب الزراع نباته، ثم حينما ينضج ويأخذ في النمو لا يلبث إلا أن يكون حطاماً، فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، هكذا الحياة في الحب تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة، ولكنه لا يدرك أنه كان يطارد سراباً خفياً، فلا داعي لكل هذه الحِمية ولا اندفاع الشباب.

بهدوء كالعادة كان رد الفيلسوف مع غيمة من دخان غليونه بين كل جملة والأخرى. ثم عقّب خاتماً:

- من المؤلم أن تحب بصدق.. وتخلص بصدق.. وتغفر بصدق، ثم تصدم بنهاية تخذل كل الصدق الذي قدمته.
- لمَ أنت تلتزم الصمت هكذا يا أيها المؤرخ؟ ألا يوجد لك رأي في ذلك السجال الأدبي؟ أم لا تريد مشاركتنا وتنصر واحداً منا على الآخر؟

ابتسم قليلاً، ثم ردّ بعد ما ارتشف رشفة من قهوته:

- بل عندي رأي، وأعتقد بأنه سوف يُنهي هذا النزاع الناشب بينكما وتستريحا، ولكنني كما اتفقنا سوياً بأنني سوف أكون مستمعاً لكما حينما تتحدثا.
- وقد كان.. الآن الدور عليك، فما قولك؟ فلتفض علينا.

اتكأ جيداً على كرسيه، ثم نظر إلى كليهما نظرة الواثق بنفسه، ثم قال بكل ثقة:

- الرجال يموتون من الحب، والنساء يحيين به، الحب دمعة وابتسامة، الحب أعمى، والمحبون لا يرون الحماقة التي يقترفون، الحب مثل وجبة دسمة مما لذ وطاب لك ومما تشتهي، ولكنك تكتشف في نهاية المطاف بترهلات في كل جسدك، وبصديق جديد ممتد أمامك اسمه كرش فتضطر إلى أن تصاحبه..
- الحب كالسيرك، فيه من الألاعيب والحركات المبهجة، ولكنها ترهقك إذا كنت الفاعل، وتقتلك إذا كنت المفعول به، وتسعدك إذا رأيتها من الخارج، الحب يرى الورود بلا أشواك، ويرى الأشواك ما هي إلا

العذاب البسيط لنيل النجاة والحلاوة السرمدية، الحب أصدق كذبة ممتعة وحلوة ممكن تعشها في حياتك، الحب جميل، ولكن...

- جنون .....!

قالها الفيلسوف مقاطعاً، ولسان حاله خلاصة كلامك بأنه جنون.

هنا رد الشاعر وبدا على وجهه التوتر وبعض الضيق..

- بدأ عقلي في صراع أيكن بهذه الصورة البشعة !
- لا يمكن أن يكون بشعاً، فهو دوماً يقوّي الحبيب، ألا يستقوى الحبيب بمحبوبه لصراعات الحياة؟ يعيش بداخله، فكيف يُهزم شخص يعيش في داخله اثنين! وها هو عنترة في عز الحرب يقول:

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ
مِنّي وَبيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي
فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ؛ لأَنَّها
لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

- فهو في وسط الحرب لم تغب عن مُخيلته، ويذكرها ويتذكرها ويمدح مبسمها.
- نعم إن الحب يُقوي حينما يدبّ في الأوصال، ولكن هل تعلم تاريخ العُشاق!
- بذكر عنترة، فبرجوع للتاريخ ستجد أشهر العُشاق وأشهر قصص الحب لم تُتوج بالزواج واجتماع الأحبة، بل باءت بالفشل.. وهنا أقصد بفشل الوصال ..انقطاع الخيوط المتصلة بينهما فأصابت أرضهما زلزال لا يرحم

قلوب العُشاق بأَعْتَى مقاييس ريختر، فتتلاشي من تحت قدميهما رويداً رويداً...

- يحكي التاريخ عن عنترة وعبلة، عن جميل وبثينة، وعن قيس بن الملوح عاشق ليلى، ذاك المجنون الذي أضحى مجنوناً في حبها، لم يظفر بها أيضاً.. والكثير، التاريخ لا يكذب، ذلك التاريخ يشهد على كل تلك الوقائع..

ثم سكت ملياً وتنهد، وقال:

- إن ما أريد أن أقوله إنما الحب كالميزان، لا تبخس الحق فيه أبداً، ولا تفرط فيه فتصيبك ضرباته القاتلة، ولا تحرم نفسك منه فتمنع عنك عسل الحياة.

حيّاه الجمهور على كلماته وأدائه المتقنين..

- ألم أقل لكم إن الحب جنون؟

تنهد الفيلسوف، وقام من مجلسه، وقال مخاطباً الجمهور.. ثم أكمل:

- الحب لا يقتل العُشاق.. هو فقط يجعلهم معلقين بين الحياة والموت، الذي يحب يُصّدق كل شيء أو لا يُصّدق أي شيء.

هنا تحرك الشاعر ناحية الفيلسوف، وهمّ أن ينال منه وأمسكه من ياقة قميصه، ليعاود المناوشة من جديد، فانتقض المؤرخ ليفصل عنهما، ولكنهم جميعا قد دخلوا في الشباك...

انطفأت الأنوار وأخذ الستار في أن يفرش أشرعته على محيط المسرح في هدوء كما بدأ معلناً عن انتهاء الفصل الأول من المسرحية مع ارتفاع صيحات الجمهور وأصوات التصفيق للفنانين، ثم أسدل الستار في هدوء.

السعادة أحيانًا، وربما دائمًا، لا تتطلب الكثير، سوى بعض الحب والسخاء، وقليل من الحريّة.

واسيني الأعرج

* * * * * * * * * * * * *

الحب يحتاج إلى أن يُرى..

أن يُحس أيضـًا..

فهل كنت باردة إلى هذ الحد وعمياء؟!

واسيني الأعرج

الحب المفقود

أصبحت الحياة بيننا رتيبة، ولا أحب الحديث معها طويلاً، صباح الخير ومساءه، ثم يعج اليوم بالمناوشات المعتادة حينما نتراءى لبعضنا البعض.
والسؤال " لمَ كل هذه الجفاء؟! "
تختتم معي الإجابة "بأنت السبب" ، وكل هذا بأخلاقك الفاسدة والانحلال، ثم تنتحب باكية في أحد جوانب المنزل، لتقل جملتها الشهيرة.. كرهت الحياة معك بهذه الصورة.
كل يوم ما هو إلا صورة مكررة من اليوم السابق، لا إضافة تعيد البهجة إلى الحياة، ما أصبحت فيه أمسي فيه، لا جديد، كله بنفس النمطية، كمشهد من فيلم لا تحبه يُعاد ويتكرر، وكأن الشريط أصابه العطب ولا يريد أن ينتقل إلى المشهد الآخر، كلما انتهى المشهد تباطأت الأحداث، لتبدأ من جديد نفس حيثيات اللقطة اليومية.
أنا إبراهيم وصفي الشاب الثلاثيني الذي يسكن في إحدى حواري مصر القديمة في حي الجمالية، على الرغم أني لا أحب تلك المعيشة، وأتطلع إلى عيشة البهوية والأبهة، أجعد الشعر وقمحي البشرة متوسط الطول ومفتول العضلات، يطلقون عليّ أهالي المنطقة المصري الأصيل.
تاجر عطارة أعشاب طبيعية، تزوجت من ابنة خالتي بعد ما استقر الأهل على اتفاقاتهم، أتممنا الزيجة في عجالة من أمرنا، ولكن لم يكن يهمني الأمر،

سواء تمت هذه الزيجة أم لا، لم أكن من هؤلاء مرهفي الحس الذين ينساقون وراء مشاعرهم ويلهثون وراء نسمات الحب الخادعة، ولكنني متيقن من أنها تحبني وتهيم فيّ وجدانياً، مضى على زواجي -على نحو ما أذكر- أكثر من ثلاثة أعوام، كان كل شيء في بدايته جميل.

الحياة وردية وعطاء متبادل بلا انقطاع، الحب يسكن ديارنا، السماء تظللنا بسحابة من دفء المودة بيننا، تلك المشاعر التي تُنسيك نفسك، فتعيش فرحاً مختالاً يهتز قلبك أيّما اهتزاز دلالة حبور وسرور.

مضت الشهور الأولى من زواجي، وأصبحت أفق من مخدر نشوة الغرام والحب، كانت مثل أي بدايات من التفافك حول الحصول على زهرية جديدة مزخرفة الطراز ومستحدثة في عالم التحف الفنية العالمية.

وسرعان ما تلاشت حلاوة البدايات بشكل تدريجي تسلل إلى أعماقنا، إلى أن أصبح الحال كما هو اليوم.

لا مشاعر بيننا، الفتور يسيطر على الأجواء، لا أريد أن أرضخ لسطوة الحب العفنة تلك التي تقلل من كبريائي وتصرفني عن أهدافي وتطلعاتي، أصبح المشهد من دكانة العطارة إلى المقهى مع أصدقائي، نحتسي الشاي والقهوة ونلعب بعض الكوتشينة بما يظهر للناس أننا جالسين نفعل أفعالَ من يتردد على قهوته فيتخذها بيتاً، ومن يوم إلى يوم تحولت الجلسات من المقهى إلى الكباريه.

وهي فيها ما فيها من اعوجاج وانحلال وخلاعة.

وأصبحت لا أدراك حالتي وأنا عائد إلى بيتي في تلك الحالة المُهينة، فأعود إلى سريري وحدي، أنام من شدة الهرج والمرج الذي أتعرض له، ولا أعلم

يا تُرى هل كانت وفاء في البيت أم تسربت من تحت أعتاب الباب من شدة حنقها!

فأستيقظ إلى عملي، وهكذا تسير الأحداث في نفس الدائرة المغلقة، لا لها من جديد ولا لها من بصيص نور يُشرق تلك الظلمة.

حتى أخذني صديق لي مدعياً بأننا سوف نسهر سهرة لن أنساها، وكانت تلك أول طلقة تُضرب في الجو في سِباق الجري وراء البهوية..

هناك تعرفت على الراقصات الفاتنات وبعض رجال الأعمال وأصحاب المشاريع، يتسللون خِفية دون الجهر ليغوصوا في محيطات السُكر والاستمتاع، وبدأت معهم الصداقة في صدد تحقيق أحلامي وطموحاتي والأفكار التي تراودني، وحاولت جاهداً أن أتشبث بأحدهم.

تعرفت على الراقصة صافي كان ما بيننا هو انجذاب متبادل، أعجبت بهيئتي وبكلامي المعسول لها، وأنا لأكن صريحاً أعجبت بها كثيراً، أحسست بمشاعر دفينة تجاهها، كنا نسهر جماعتنا سوياً حتى الصباح، حتى فتحت لي باب السعادة، وجدتها قد طلبت مني أن نتزوج في السر، فهي لا تقوَ على فراقي، تفاجأت من طلبها، ولكن وافقت بلا تردد لرغبة ما في داخلي، أوجزنا في زواجنا العرفي في سرية تامة، وقد طلبت مني أن أكتب لها إيصال أمانة؛ حتى تضمن حقها، لم أعطِ تخويناً لها، كنت قد نويت أن أشاركها في طموحاتي وأتخذها سلماً لأصعد إليه سريعاً إلى ما أريد.

كنت في عالم آخر بعيداً عن وفاء، وحينما أعي لها يبدأ الشجار المعتاد الذي سئمت منه.

- لم تعد أنت إبراهيم الذي أعرفه.

قالت وهي تحاول أن تجذب انتباهي للحديث معها..
نظرت إليها في صمت، ولم أعرها أي اهتمام، وعدت إلى إكمال إفطاري.
- إني أتحدث إليك، لمَ لا ترد؟ هل صدر مني ما يضايقك!
شعرت في لهجتها بالاستعطاف الشديد، ورغبتها في التودد إليّ
- قلت لكِ مسبقاً كلامك على الصبح يدفعني الي العصبية.
قلتها بشيء من الحدة والتجهم موجهاً قامتي إليها في اعتدال مع نظرة ثابتة، يظهر منها نوابع الشر.
- إبراهيم.. أنا أحبك، أنت تاركني كدة لوحدي!
- هو السبب وراء ذلك كله إن ربنا لم يمنحنا حتى الآن الولد اللي نفسك فيه، بس الحمد لله ربنا رزقنا بـ نور بنتك، فيجعلك ذلك متضايقاً مني!!
نظرت إليها وعيناها تترقرق بالدموع، ويبدو عليها الارتباك، وكأنها تريد أن تقول لي: لا أريد من الدنيا إلا مرضاتك، فلمَ كل هذه البُعد وكل هذا الهجران المؤلم؟!
تعصبت في شدة، وقلت لها بشرارات نار تُقذف من عينيّ...
- انتِ عارفة إيه اللي يُعصبني وتعمليه، أنا مش قاعد في البيت، وكمان الأكل اللي عملتيه أهو، تريدين أن أتسمم اللقمة اللي بأكلها، أنا ماشي.
قذفت أحد الأطباق من على الطاولة، ليصدر صوتاً مفزعا على الأرض وأنا أتمتم بكلمات خفية في ثناياها بعض الدسائس غير الأخلاقية.
توالت الأيام بكثير من الجفاء، وقليل من الحب المتبادل..
كان بعد كل مشاحنة بعض انقطاع، أكلمها ببعض الكلام المعسول الذي لطالما استخدمته مع صافي.

مع بعض النصائح من أصحابي الجدد الذين لهم علاقات نسائية لا حصر لها، والذين لا يختلفون عني بمقدار كبير، فيلين هذا الجانب منها، وما هي إلا أيام قلائل حتى تعود حفنة الماء التي أوشكنا أن نمسكها سوياً أن تنسل قطراتها من بين أيدينا ساقطة، فلا نحن قادرين على استرجاع ما قد تهاوى منا، ولا نحن راغبين على أن تمتلئ راحة كفوفنا بمياه الحب الكاذب.

كان يوم الخميس، حيث صافي تقيم محفلاً في بيتها -كان أشبه بالقصور- لكل معجبيها ورجال الأعمال المهمين.

استعددت باكراً للذهاب إليها، فهي الفرصة السانحة أمامي، ولكنها اعترضت طريقي..

- إبراهيم، أنا و نور هنخرج النهارده؛ لأطمئن على ماما عشان تعبانة شوية، ما تحاول ننزل سوا وتيجي معانا؟

في شعور دافئ منها قالت لي:

- ومن بعدها نخرج سوياً إلى حيثما شئت، منذ مدة طويلة لم نخرج لنأكل مثلاً في أحد الأماكن العامة!

بكل عجرفة وبكل برود ارتفع صوتي لأقول لها:

- مش فاضي يا وفاء... النهادره مش فاضي، عندي ميعاد مع ناس مهمين عشان الشغل، أقولك خليكم عند ماما يومين كمان عشان تطمني عليها براحتك.

رددت في حنق داخلي وبعض من الغيظ.. تعلم أني لا أحب زيارات العائلات -وخصوصاً حماتي- على كلٍ تمالكت غضبي، فلا داعي إلى أن

أعكر صفو هذه الليلة، وأنا لا أنوي أن أبتدئها بشجار أو أي نوع من الصياح.

- ألن تأتي توصلنا إلى بيت ماما؟!

كانت تلك آخر المحاولات منها لمحاولة الظفر ببقائي لوقت أطول.. اكتفيت بهز الرأس لها نافياً.

- لم تغرب الشمس بعد، وتستطيعين أن تستقلي أي مواصلة أو تاكسي للوصول، أنا لا أملك لكم أي وقت.

وأسرعت قائلاً حتى لا تفكر في حيلة أخرى، فقاطعتها قبل أن تُشرع في أي موضوع أو حديث جانبي آخر.

- مع السلامة، خدوا راحتكم.

ذهبت إلى حيث صافي حيث تجد كل ما تحب، لم أشعر بالوقت وهو ينساب من عمري سريعاً لحظة تلو اللحظة وأنا أستمتع معهم، جلسنا مع أحد رجال الاعمال وطرح عليّ مشروعاً مربحاً بكل مراحله...

تحمست، ولكن كنت على وجل، فهو يحتاج إلى رأس مال كبير، وأنا جُل ما أملكه محل العطارة الكبير..

عرضوا عليّ أن أدخل به كرأس مال أولاً، ولكني رفضت خوفاً مني، أقنعتني صافي بشتى الطرق أن أساهم في هذا المشروع، متحججة بأن الفرصة تظهر مرة واحدة فقط للإنسان.

على مضض وافقت ودخلت معهم، وأمضت ليلتي معهم في الفيلا، وأصبحنا أبرمنا العقود وأنهينا كل شيء، وأصروا أن نسهر سوياً مرة أخرى بمفردنا هذه الليلة؛ احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة، واستفتاحاً لأولى

الخطوات، مضت الليلة كأي ليلة فيها الطرب والسكر، ثم فقدت الوعي تماماً، لم أدر ما الذي جرى!

آخر ما أتذكره كنا نحتفل في فناء الفيلا ليلة، وغلبني النعاس..

لم أدرِ كم من الوقت نمت، ولكني استيقظت على صوت ضابط فوق رأسي يهزني بأن أستيقظ، لم يكن شيئاً جلياً ولم أفهم لمَ ساقوني معهم إلى القسم! بعد استجوابات معي اكتشفوا واكتشفت.. أما اكتشافهم فإني المجني عليه ليس لي دخل في تهم النصب المشهودة في البلد، وأما اكتشافي صدمتي، فقد ضيعت مصدر رزقي وذهبت أدراج الرياح سيبوه يروح!! راح يقولها الضابط ليفرج عني.

- طيب وحقي يا باشا وفلوسي ومكاني؟
- مفيش في إيدي حاجة أقدر أقدمها ليك، القانون لا يحمي المغفلين.. تقدر تتفضل.

لم أستوعب ما قد جرى.. وهل أنا أحلم أم أنه كابوس مخيف؟!

عدت مهموماً مع أصوات الأذان في المساجد تنبأ عن قدوم الفجر، دلفت إلى داخل البيت، لم أشعر إن كان أحد هناك.

إن دخل سارق الآن إلى هنا وأخذ ما يريد، فإني أقسم لك بإني لن أعلم بتواجده، وإن علمت لن أكترث له، فإني متعب الآن، فقط أين السرير؟!

ثم الغوص في نوم عميق.

استيقظت على صوت خبط شديد على الباب، وجرس الشقة يكاد أن يُجن من كثرة صليله والضغط عليه، يكاد صوته أن يتمزق، فزعاً قمت من مضجعي، لحظات ثقيلة عليّ أن أستجمع رشدي وأعلم أن في دنيا الواقع!

هرولت إلى باب الشقة وفتحت وأنا في لحظة غضبي وبعلو صوتي
ما كل هذا الصداع ووجع الدماغ؟ هو فيه حد بيخبط على حد كدة!
وجهت كلامي بكثير من الحدة، ثم هدأت نفسي حينما علمت أنه سامي.

- سامي!! ايه اللي جابك دلوقت؟ وما كل هذه الجلبة اللي انت فيها، لقد أفزعتني من النوم، يا وفاااااااء...

وضعت يدي على رأسي، وهممت أن أجلس على أحد كراسي الصالة بعدما دخل سامي.

- مراتك وبنتك في المستشفى يا إبراهيم، عملوا حادثة من يومين.

لم أستوعب في أول الأمر مقولته، ظننت أني ما زلت تحت تأثير ليلة أمس، نظرت إليه طويلاً..

- انت بتقول إيه؟! أعد عليّ مقولتك تلك.
- بقولك مراتك وبنتك عملوا حادثة من يومين وهما طريقهم إلينا، وهما دلوقت في المستشفى.
- ازاي!! أنا أخر مرة كنت معاهم وهما في أحسن الأحوال، هي وفاء مش جوة؟ ولمَ لمْ تتصل عليّ؟
- تليفونك كان مقفول طول الوقت، ولم يكن فالإمكان الوصول إليك على الإطلاق.

اندفعت كالمجنون إلى خارج الشقة، لا أعرف ما الذي دهاني من الأساس وما الذي كنت أفكر فيه! لم يكن شيئاَ سوى وفاء وابنتي نور، وصلنا المستشفى.. كنت في حالة من الذعر، لم أكن أتوقع أن أقلق مثل هذا القلق عليهما.

قصدت الدكتور، فأخبرني بأنهما قد أصيبتا ببعض الصدمات والكسور، ولكن الحالة مستقرة لا تقلقن وأنهما يحتاجان إلى الملاحظة تحت أعيننا حتى يستعيدا عافيتهما.

دلفت إلى داخل الغرفة، تجهمت للحظات خاطفة حاصرتني أفكاري في مسقط نفسي، كانت أول مرة أرى فيها وفاء بتلك العين، بعين المحب المتلهف بعد زواجنا، سيطرت على أنفاسي حتى كادت أن تخنقني فكرة تلمسني من أعماقي.

فكرة قالت لي بأنني سأفقدهما معا، لم تأتِ على مخيلتي أبداً فكرة خسارة أهلي الأقربين مرة من قبل!

شعرت بأنني سوف أخسر كل شيء، أخسر كل حاجة حرفياً، هلعت للفكرة في مهدها.

- انتو بخير يا وفاء؟ و نور بخير؟

تحدثت إليها بتلهف؛ لأطمئن عليهما، فإذا بها تشيح بوجهها بعيداً عني.

- وفاء.. أعلم أنى قصرت في حقكما وانصرفت عنكما معظم الوقت، ولم أهتم بكِ ولا أضعك نصب أعيني بنظرة رقيقة أو كلمة تبهج فؤادك..

ثم لحظات صمت طويلة قد مرت علينا ونحن ناظرين إلى أعين بعضنا البعض.

نظرت إليّ باستغراب شديد اللهجة لا تنطق ولا تحرك ساكناً.

أما أنها لو كلمتني! دار في خلدي شريط سريع من حياتنا، كم هي لها يد في كل خير أنا فيه.. تذكرت كل أفعالها التي تدل علي كرم أخلاقها وطيب

أصلها، لتبرهن أنها نعم الزوجة، أما أنا كنت كعربيد أراد أن يطغى بطموحاته على شموع حياته التي تنير ظلماتها.

ما المانع في حياتنا البسيطة تلك في الجمالية!

ومن محاولات جديدة أبدأ مشروعاً لي، وسوف يوفقني الله.. هنا تحسست السكينة تسير في عروقي بدلاً من الدماء، ذات لون أبيض ناصع لا أحمر مفزع.

بدأت غشاوة كانت تسد الرؤية عني تنقشع..

بدأت الصورة تتضح وبدت الملامح ناضجة.

لحظة واحدة كدت أن أفقد فيها تلك الشمعتين من حياتي، جعلتني أفيق من غفلتي وطرقي المتعرجة، وأهتدي السبيل على بينة.

وضعت قبلة خفيفة على جبينها، وهمست في أذنيها همسة خفيفة أحبك.

نظرت لي نظرة المندهش، كمن أخبروه لتوه أنه هو المركز الأول في مسابقة للمعلومات العامة، ولم يكن يتوقعها، ولو بلغت به الآجال أحقاباً.

- بعد فترة جوازنا لم أسمعها منك يا إبراهيم.. منذ أمد.

بضحكة كانت ممتلئة بالحنان قلت:

- أنتِ تستحقين إنك تتحبي بكل اللي فيكِ.. بكل أوصافك، بصَمتك وكلامك.. كل حاجة يا وفاء.. كل حاجة.. كل حاجة.

ضحكت ثم مالت عليّ، فأغمضت عينيه، فداعبتها قائلاً:

- لو أستطع القبض على ضحكة واحدة منكِ، لأعلقها كجرس في فناء قلبي، يدقّ، كلما شعرت بالحزن.

نظرت لي ضاحكة بعد ما حاولت أن أقول لها كلمة تروي ظمأها بعدما نضب.

بدأت تتجاوب معي، نظرت إليّ، تحدثنا كثيراً، قلت لها كلاماً معسولاً كثيراً، أخذتها بين أحضاني، احتضنت نور، قبلت رأسها وأضفت قليلاً من المداعبة.

تذكرت أني تركتها وحيدة كثيراً، وكنت قاسياً عليها في أغلب الأوقات، ولم تلاقني بالجفاء.

كنت أعتقد أنه طالما أستكفي حاجة بيتي من جميع مطالبه فذاك كل الحب.

- سامحيني يا وفاء.. سأصلح من نفسي، وسأغير كل الطرق التي كانت سبباً لجفوة بيننا.. كل حاجة سترجع أحلى بإذن الله.
- لا تحمل هماً يا عزيزي، سوف تنصلح أحوالنا ويرزقنا الله من فضله، وكل شيء لا تُخشي ضوائقه طالما وجودنا احنا الاثنين مع بعض. أنا ليّ عندك طلب.. ممكن؟
- قولي ما تتمنيه، وفي التو والحال يكون بين يديك الجُمال.
- في كل مرة وانت جاي من الشغل جبلي معاك وردة حلوة على ذوقك.

ردت باسمة والرضا الممزوج بالتمني يعلو محيها.

- ورد؟! ليه يعني.. إيه الطلبات الغريبة دي؟
- أيوه ورد، أنا بحب الورد، الورد يا إبراهيم...!
- بس كدة.. الورد للورد.
- الإهمال يقتل الحب، والنسيان يدفنه، وانت فعلت كل ذلك.
- مش هنساكِ أبداً، وهفضل أجيب ورد ليكِ، وربنا يستر على الميزانية بتاعتنا.

راحا يضحكان في سعادة ورضا، وكأن الشمس قد أشرقت علي مسكنهما من جديد وبيد تملؤها الحنان تنعم عليهما بدفئها وضوئها فاطمأنا لها.

بعد بُرهة من الزمن استشعرْت بحلاوة النعمة التي كانت في حيز أرضي، كشجرة طيبة أصلها ثابت لا تبخل عليّ أبداً بثمارها اليافعة، تُعطيني أجمل الثمار في كل موسم، ولا تضني عليّ بحبها ودفئها، فتظلني تحت غصونها وأوراقها، فلا تصبني حرارة الشمس الحارقة بل تعطيني القدر الكافي المطلوب للدفء، ولا يحركني ألم الجوع القارس.

أدركت كم كانت خيراً ساقه الله لي، ولكني كنت غافل عنه، مُشرد الفكر في اتجاهات أخرى، مُتمرد على نعمة الله لي، باحثاً عن الزيادة بغير مشروعيتها.

ولما كانت الحياة رتيبة في جزء من حياتنا، أصبحت الآن يدب فيها الحيوية والإشراق، وتملأها البهجة والمرح، وحتى أوقات الخلاف لا يطول أمدها، رحت أتساءل:

ما السر وراء كل هذا!! وما الذي قد جمّل نظرتي لحياتنا؟!

أهو إحساسي بفقدانها واستشعار كم كانت فارقة في مُجريات حياتي؟!

وهل وجد الحب جدران قلبي بعد ما فقد دربه المستقيم، ليعود من كونه حب مفقُود إلى حب في القلوب معقُود!

أم هو شعوري بتأنيب الضمير تجاهها وأني مقصر في حقها؟

على الأرجح إنه بسبب الورد الذي أبتاعه كل يوم في طريق عودتي للبيت، لم أعلم ما السر الخفي وراء الورد والزهور مع النساء..

وكأن له لغة معهن كما تفعل معنا ساحات ملاعب كرة القدم نحن الرجال!
فكل منا له لغة يُتقنها، ولذا كان من واجبي ان اتعلم لغة من لغاتها المتشعبة
.

طالما يترك الورد أثار سحره في نفوسهن، وحينما تشملُنا لغة الورد بشكل خصوصي وينشر عطره الطيب على بيتنا، ويُزهر أرواحنا سوياً متآلفة تحتضن بعضها بعضاً، لا مانع من الورد كل يوم او أحيانا

ولكن ما زلت أتعجب لمَ لمْ يعد يتبقى معي مدخرات من ميزانية الشهر!
أهو من كثرة المصاريف؟
أم من سحر الورد!

دَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى عَن الْهَوى

كمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الخَمْرِ بِالْخَمْرِ

ألا زعمت ليلى بأن لا أحبها

بَلَى وَاللَّيَالي العَشْرِ والشَّفْعِ وَالْوَتْرِ

بَلَى وَالَّذي لاَ يَعْلَمُ الغَيْبَ غيْرُهُ

بقدرته تجري السفائن في البحر

بَلَى والَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ

وعظم أيام الذبيحة والنحر

لقد فضلت ليلى على الناس مثلما

على ألف شهر فضلت ليلة القدر

قيس بن الملوح

هل وقعت في الحب قبل ذلك؟

مريع، صحيح؟!

يجعلك هدفًا سهلاً، يفتح قلبك وصدرك لذلك الإنسان الذي يصبح بإمكانه الدخول وتدميرك من الداخل تمامًا.

نيل جايمان

اعترافات عاشق

هذا تفريغ صادق لما قاله الشاب المُغني المشهور أحمد الحلو على صفحته الشخصية على "الفيسبوك" قبل أن يكتب منشوره الأخير، الذي قال فيه " قتلتها، وسأقتل نفسي الآن!! "

" ممكن نبدأ فيديو لايف مهم يا شباب؟ "

مين حاضر معانا؟!

أنا خارج البيت، أنا بصور من المعادي، بعيد كتير عن بيتي.

نويت تشغيل الفيديو الساعة الثانية فجراً، لا أريد الكثير أن يشاهدوا هذه الاعترافات، ولكن أريد أن أحدث أحداً بها؛ لأنها تؤلمني بشدة...

لا يوجد سوى خمسة أشخاص؟ لا يهم، من سيشاهد هو الفائز بسبق معرفة ما سأقوله، ومن أغلق اللايف هو الخاسر.

بدأت الحضور تيجي أهو.. شيء مبشر..

لا أعلم هل من أحد يسمعني؟! الصوت واضح تماماً؟ حتى لا نضطر إلى إيقاف أي من كلامنا بسبب عدم وضوح الصوت.

تمام شكراً يا رنا، تمام رنا أكدت الصوت واضح معاها.

آآه.. وأيضاً كان في قرار مهم أتردد فيه أريد أن أشاركم فيه، وآخذ آرائكم.

جميل الأعداد بتزداد أهو.. أنا بقالي كتير لم أظهر في فيديو لايف، لا أريد من أحد أن يتفاجئ، لأن المفاجآت لسه في طريقها..

بالمناسبة كل اللي هيشوف الفيديو ده، هيبقى شريك معايا في الجريمة اللي عملتها واللي لسه هعملها، أنا جهزت المسدس بجواري .

طيب فيه كتير منكم بدأ يسأل أهو في تعليقاتكم.. اصبروا بس لحد ما أحكي ليكم، وبعدين احكموا عندي حق ولا لا؟

مروة بتقول:" كلنا بنحبك يا فنان، انت مختفي عنا ليه بقالك كتير؟!"

شكراً يا مروة، بس أنا مش هبقى مختفي خلاص، أنا همشي للأبد.

عيّاش كاتب أهو بييسألني:

" شو بس اللي صار يا خيي، انت زلمة مليح كتير، ما تزعل روحك."

المليح اللي صار له كتير يا عيّاش مش مليح هالحين.

ماشي يا عماد هرد عليك انت آخر واحد عشان أبدأ سريعاً في اللي عاوز أقوله ليكم..

اللي راح ما بيرجعش يا عماد، تعرف انت ترجع قلبي اللي انكسر؟ ولا روحي التي أصبحت باهتة؟ ولا رغبتي في الحياة التي صارت منعدمة؟ رد عليا هتقدر؟!

واضح الناس اللي بتشوف الفيديو في توافد سريع، جميل، كل ما يكتر العدد يزيد الشهود، وناس كتير تعرف.

طيب أنا هبدأ في الاعترافات الأول، وفي الآخر هقول لكم القرار، بس أتمنى سيل التعليقات يقف، لن أستطيع التركيز بين ما أقوله وبين تعليقاتكم، لن أتابع التعليقات، ولكن سأتوقف بين آنٍ وآخر لأرد على بعض منها.

أميرة تطلب مني الغناء، حتى لو مقطع أحبه الآن على الهواء

اممم الآن يا أميرة!! أتمنى الوقت كان يسمح، بس للأسف أنا مرهق جداً وصوتي مش هيعجب حد دلوقت، بالإضافة المكان اللي فيه لا يسمح إني أعلي صوتي.

خلينا في المهم..

أتمنى كلنا نركز، الفيديو لن يطول، مجرد خمس دقائق أو خمسة عشر دقيقة على الأكثر، المهم اسمعوا وأنصتوا جيداً لما سأقوله.

المهم أنا كان عندي معلومات خطيرة، عموما الكل هيعرفها في عناوين الأخبار صباح اليوم التالي، بس هنا هتجدوا سبق صحفي مش عند أي حد..

أنا لا أنوي أن أفضح أحداً، أنا هتكلم عن أسماء مستعارة، وطبعاً أنا قاص للرواية فقط، ليس لي دخل في أطرافها، ولنفترض البطل اسمه "حمادة " ، وأنا هحكي ليكم باختصار ماذا جرى له؟

لا أعلم من أين أبدأ، لم أخطط كيف سأروي لكم...

ولكن ساعدوني ولا تشوّشوا عليّ، وسأحول أرتب أفكاري..

حمادة كان يقص عليّ.. قرابة السنتين الماضيتين كنت موهوماً، الكل كان يخدعني.. لم أجد سنداً حقيقياً، ولذا لم يعد لي رغبة في الاستمرار مع كل هذا.

حمادة كان يقطن أحد الأحياء الشعبية، كان مجتهداً ومثابراً وله شعبية كبيرة، صوته جميل وله معجبين في كل مكان، وقع في شباك إحداهن في إحدى الحفلات البسيطة له في النوادي، وتعرف عليها، بدون الانخراط في تفاصيل كثيرة حتى لا أرهق أذهانكم، اتعرفوا على بعض..

كان اسمها س..، صحيح اتفقنا إننا سنستخدم أسماء مستعارة، ولنقترض اسمها "سوسو".

آآآه.. نشأت بينهما علاقة إعجاب مبدئي، ومن ثَم تحول الإعجاب إلى مشاعر متبادلة بين الطرفين، ممكن نقول إن كليهما أصابهما الحب..

سوسو كانت من وسط أعلى من حمادة إذ إنها تقطن في المعادي، وهو ابن وسط البلد، ولكنه أصر أن يستكمل معها بعد ما أوضحت له أنها لا يهم لديها سوى الشخص الذي سوف تعيش معه، أن يُشعرها بأنها ملكة متوجة فوق رؤوس النساء، وأن يعشقها تمام العشق، ما يهمها أن تجد فيه فارس الأحلام الذي يختطفها من وسط الجمع على حصانه الأبيض ذي القرن الواحد؛ ليسبح بها محلقاً في سماء الدنيا، ويضيف إلى حياتها الأمان من كل المخاطر، هي تريده هو وفقط...

طبعاً صاحبنا حمادة انتفضت مشاعرالرجولة بداخله، وتفجرت براكين الشهامة والبطولة في عروقه، ولسان حاله يقول:

"مش هتبقى أحسن مني يا سوسو، وأنا هحارب من أجلك أيضاً."

ظلا سنتين في أجمل أيام عمره -كما يحكي لي حمادة- في خلالهما بدأت شهرته تزداد، وبدأ له محفل جماهيري عريض داخل وخارج مصر، كان كل همه أن يكون لها كما تريده، البطل الشهم، ذلك الفارس ذو الحصان الأبيض الثري الذي يليق بها وبمكانتها الاجتماعية.

ولكن اتفقا حتى يصل كل منهما إلى حلمه.

لا يا زمردة أنا لن أشغلكم بهذه الترهات والقصص التافهة في هذا الوقت المتأخر من الليل.. اسمعوني فقط للنهاية..

ماذا كنا أقول؟؟ امم آه، "سوسو".. لم يكن لها شاغل في الحياة إلا أن تصل إلى ما تريد وفقط، مهما كان الثمن المدفوع مقابل ذلك، ومهما كانت الخسائر المترتبة على ذلك، مادية كانت أو بشرية.

كان حلم حياتها أن تصبح نجمة لامعة في ضوء الفن والسينما، والجميع ينظر إليها بعيون الإعجاب ويتهافت عليها الجماهير؛ من أجل أن يتلقط معها صورة، أو حتى من أجل توقيعها على ملابسه، أو في ورقة تختلف قيمتها قبل وبعد توقيعها.

كانت تتعامل مع الجميع كأنها نجمة معروفة، وتخاطب من تعرفه ومن لا تعرفه بكل إقبال، وتثرثر كثيراً مع الغرباء، مما أثار حفيظتي وجعلني أغار عليها... امممم أقصد حمادة بالطبع، لست أنا، حمادة كان يحبها حباً فياضاً، كان يذكرها بهذا في كل وقت، وهي ما كان منها إلا تعبر عن سعادتها بابتسامة قابضة، ثم تُغير الموضوع فجأة إلى طموحها وأحلامها.

منذ شهرين، تعرفت على مخرج أفلام يدّعي أنه يكتشف الفنانين الموهوبين، وكانت كل اكتشافاته من الفنانات الجميلات فقط، لا يهم الآن، كانت تخرج معه كثيراً، وتسهر معه كثيراً، بالطبع ذلك أثار الغيرة في قلبي، فلم أحتمل حتى طلبت منها أن تتوقف عن التواصل معه...

ليس لي علاقة بالموضوع.. هل قلت أثار ذلك غيرتي.. لاااا بل في قلب صاحبنا حمادة.. أرجو ألا يُقاطعني أحد؛ حتى لا أفقد تركيزي في التفاصيل المهمة..

امم.. إلى أين توقفت؟!

آآه.. تغير حمادة كثيراً، أصبح يسهر كثيراً وطباعه تغيرت للأسوأ، بعد ما حاولت سوسو قطع علاقتها به، قائلة بجدية لم يعهدها عليها
بإنها ستضحي بأي حاجة في سبيل حلمها، حتى لو كنت أنا، ولازم عليّ أن أكون داعماً لها، مش صد وردع.
حمادة صاحبنا مرهف الحس، ليس كأغلبيتنا، حزن كثيراً من كلامها، ولأنه يُحبها حباً من داخل أعماق قلبه فتغافل عن هذا، وراحت كرامته التي طالما شهد له الناس بها بدأت تتساقط واحدة تلو الأخرى، أوقف حلمه ولم يعد يركز، وشرب السجائر و...
لحظة من فضلكم.. أين وضعت سجائري؟
نعم قد وجدتها... عذراً أنا لست بمنزلي.. أوف، كنت أقول؟؟ آه السجائر.. وأدمن معها الخمر.. وحتى أنه قلّت الحفلات التي يتردد عليها، وقل الجماهير الذين يطلبونه..
فجأة سوسو اختفت منذ فترة من الأماكن المعتادة التي شهدت لقاءاتنا، وكلامنا الذي لا يكاد يخلو من حلويات النفوس المحبة.. جن جنوني.. جن جنون حمادة أقصد.. الوقت تأخر.. إنها شارفت على الثالثة.. اعذروني واضح عليّ الإرهاق وفقدت التركيز.. أنا هتكلم كأن حمادة القاص عليكم. لن أطيل عليكم أكثر من ذلك...
بعد أسبوع من البحث والسؤال عليها في كل الأوساط المحتمل أن تكون معهم، التليفون مغلق.. وعنوانها لا أحد يعرفه من أصدقائنا.. وكانت كل المحاولات تذهب أدراج الرياح.

وجدتها ذات يوم على التلفاز في إعلان جديد، وهي الموديل في الإعلان، فزعت، حاولت الاتصال بها أكثر من مرة، ولكن في كل مرة الخط مرفوع من الخدمة.

بعد فترة بسيطة علمت أنها تزوجت من المخرج الذي أنتج لها الأغنية الجديدة بعد الإعلان، ولكن لم يُذيعا الخبر، كان الجواز في السر وعرفياً.. هنا فقدت السيطرة على نفسي، وحينما تأكدت من الخبر من أحد المعارف القديمة بشغلي، كان عقلي كأنه أحد نفحات جنهم بل ألعن... أوف سوسو خانتني، قصدي خانت حمادة هي وصلت لحلمها ولا تزال في اتجاه القمة و حمادة فقد كل حاجة.. أوف.

في أحد التعليقات السخيفة ما يدفعني للرد عليه..

عنتر كاتب كلام مش هقبله.. ومش هسمح لأي حد يغلط في حمادة بطل قصتنا.

انت كلامك أقل من إني أرد عليه يا عنتر بيه.. بس شكراً لأن انت كدة بدأت تحفزني أكتر إني أقولكم الحقيقة الجاية..

أنا خلاص قربت أخلص كل الكلام المكبوت، ما تزهقوش..

سمر بتسأل "فين الاعترافات المهمة اللي قولت عليها دي؟ "

حاضر يا سمر، هانت، لو صبر القاتل على المقتول..

بمناسبة القاتل والمقتول.. فكرتني بماذا حدث.. أوف..

أنا لن أرد على أي من التعليقات مجدداً..

أريد أن أنتهي قبل الفجر؛ حتى لا يعلم الجيران بوجودي هنا.. المهم نعود إلى ما بدأنا... قلت لكم لا تشوّشوا عليّ، أريد أن أركز بالضبط في المشهد الختامي حتى يتسنى لي الاعتراف.. آآه.

صاحبنا حمادة عرف يوصل لعنوان سوسو، وعرف بالضبط معاد اجتماعهم بالشقة وجهز كل حاجة..

ورسم الخطة المحكمة أطرافها، وسكر حتى الثمالة، ونفض عن نفسه أوهام الطموحات التي أصبحت لا تُجدي نفعاً، ولم يكن لها مستقراً ومستودعاً، ألقى بكل تطلعاته المستقبلية وآماله المتلهفة للمجد وأحلامه التي تُراوده، ألقى بكل ذلك في أقرب منتجع سياحي فاخر من القاذورات..

وجد حينها آمالاً لآخرين محطمين مثله مُلقاه هنالك، فبدلاً من كونها شعلة تنير الدرب للأمام، تجمعت كل الآمال في مكان واحد تصبح كومة من الآلام.

حدد اليوم والزمان والمكان لتنفيذ نيته..

كل شيء لا يقبل الظفر به هو حتماً شيء خاسر، ما أسهل الخسارة حينما تعددت خسائرك وأتت كلها دفعة واحدة، لتصفعك صفعات واحدة تلو الأخرى، وأنت لا تهتم لتلك الصفعات، حتى أتت الصفعة التي كان لها الكلمة الأخيرة واللكمة الأخيرة!

ولذا قررت الخسارة، قررت الهزيمة، فلا حاجة لي بحياة كل انتصاراتي فيها أنني كنت أتلقى الصفعات بكل صمت، ثم أقع مغشياً عليّ من إنهاكي المتراكم، لا حاجة لي بحياة كلها صفعات!

أقسم لكم أيها الناس إني كنت ناصعاً مشرقاً مقبلاً على الحياة، كزهرة تفتحت لتوها تستقبل أولى إشراقات الشمس، وأولى نسمات الهواء الطلق.
لم تولد معي كل هذه المعاناة -أعني حمادة كما يحكي لي- ولكن لا أحد يستطيع أن يتحمل ما تحملته، كان عندي الموت أسهل وأكثر رحمة من هذه الهزائم المتتالية، التي أثقلت كواهلي، ولم أعد أقوى على الحمل منذ الآن.
اشترى حمادة مسدساً وجهز الطلقات..
انتظِروا لحظة من فضلكم، سأذهب لآتى بكوب من الماء وأعود إليكم، دقيقة أو دقيقتين على الأكثر، ابقوا هادئين، لن أغادر قبل أن أكمل لكم ما بدأنا، فلا داعي للتراجع والتقهقر بعد الآن، لا بد لي أن أُكمل المواجهة.
ها أنا قد عدت إليكم.. جيد، تقريباً نفس العدد لم يُغادر أحد.
اعذروني أحسست بالعطش الشديد يعصر جوفي، كان لي بحاجة إلى الماء وإلا وقف الكلام في حلقي ولن أكمل لكم..
الآن فرغت من شربي للماء، وأيضاً فرغت من الجزء الممتع في قصة حمادة..
أين توقفنا بالضبط؟!
آآه، شكراً يا عامر، توقفنا عند المسدس.. هانت، أتى الجزء الهام من الكلام..
صدقوني كلما تذكرت الأيام الخوالي شعرت بنسمة طيبة تلفح وجهي، وحينما أنظر إلى تلك الدقائق واللحظات الصعبة أشعر بفحيح من لفحات جهنم، وكأنها تتقد من أجلي وتنشر لهيبها ترحيباً بي، وتهيِئ لي استراحة خاصة بي وفقط..
في الليلة الموعودة جهزت سلاحي، وتجرعت الكثير من الخمر، ولا أحصي كمّ السجائر التي دخنتها، لم أكن في حالة وعي لما أقوم به، كل ما كان عندي

أنني خاسر بلا شرف، ميت بلا رجعة، لذا قررت الانتقام من سوسو كما خانتني، فهي تستحق العقاب، تستحق أن تتجرع من نفس الكأس المر الذي ذُقته وشربت منه أطناناً، كما كانت هي السبب في أن تقع قدماي في الهلاك، فلا بد من رد الجميل، وأدعوها لتصبح ضيفة على مائدة الهلاك، لأرها أمام عينيّ وهي تتألم وتعتصر من الجراح، كان لا بد لي من الانتقام.. الانتقام وفقط..

قررت أن حفظ ماء وجهي وأرد اعتباري، حتى لو مرة وحيدة ومرة أخيرة قبل الرحيل.

عارف يا مي أنكم تأففتم من كلامي.. خلاص هانت.. لم يتبقَ سوى القليل جداً، والمهم جداً.

المهم.. امم، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كان حمادة أمام العمارة التي تقطن فيها سوسو وزوجها المخرج، انتظرهما خارجاً حتى يدلفا من العمارة، تتبعهما في هدوء مبالغ، لم يلاحظاه من سكرهما وضحكاتهما المتعالية، بخطوات متأنية..

بشجاعة فارس على جواده ينتظر اللحظة المناسبة حتى يبدأ تسديد ضربة موجعة لعدوه، وفي لحظة فتح الباب ودخولهما إلى الشقة، أنق..

ثواني.. عذراً كان هناك من يدق الجرس، لم أرد عليه، لعله بواب العمارة، أتى في وقت هام، ليته لم يأت..

خلينا نرجع بسرعة قبل ما حد تاني يُفسد علينا ما عزمنا عليه.. لا عودة للوراء، علينا أن نستكمل ما قد بدأناه..

في لحظة فتح الباب، انقض عليهما انقضاض الأسد على فريسته، حتى أنه تعجب من سرعته في الهجوم ومن حدته في المواجهة.

بعد عراك لم يستمر طويلاً بينهما، أشهر حمادة المسدس في وجيهما، فلم يحركا ساكناً..

حارَ في أَمْرِها وَلَمْ يَعُدْ يَدْرِي ما الواجب فِعْلُهُ:

ارتبك، تجمد الدم في أوصالهما وأوصاله، ظل ناظراً إلى سوسو طويلاً، أظنه كان يحبس الدموع في عينيه؛ حتى لا يظهر ضعفه مرة أخرى أمامها، فهذه مرة رد الكرامة والاعتبار.

الخوف له اليد العليا عليهما، وهو لحظات حياته تمر أمامه في شريط عرض سريع، يقف على حافة ماضيه المؤلم ومستقبله المعتم، كان لا بد له من قرار يحسم هذا التردد الذي يعوقه.. هو ما زال يحبها.. يعشقها.. يعشق كل نفس هي تتنفسه.

كان مجرد كلمة عادية منها تغير حياته العادية إلى جنة غير عادية، لم يعشق سواها، كل هذا العشق الذي حمله في قلبه إليها أهملته، ماذا فعلت هي أمام حبه وصدقه معها؟

كل ما فعلته أنها قابلته بالخيانة، بالبعد.. قد ذبحته وهي لم تُسِن السكينة جيداً، أصبح مثل الذبيحة التي لم يحترم أصحابها حرمة الدم ولا حرمة الروح.. فلا بد لمثل هؤلاء أن يدفعوا الثمن جراء ما قد اقترفوا في حقي.. لم تكن أبداً سخافات صدقوني..

بل كان حملاً على كتفيّ، وأتى الوقت لأتخلص منه..

صمتٌ طويل وهو ينظر إليها بكل تركيز، ويُمسك المسدس أمامها، وهما أمامه في رعب تربع فوق فؤادهما.. كل الكلمات التي كانت في حلقه تحجرت، كل الغضب الذي كان يُسيطر عليه هرب، ولم يتبق إلا عشقه الذي جعله يحن لها.. إنه ذلك العشق المميت الذي قتله مرة تلو مرة.. كانت تقابله هي بجفاء، ويقابلها هو بحب وعطاء.

هو هذا العشق القاتل الذي خطف روحي مني فلم تصبح لي، بل قبعت فيها هي، فبهتت روحي، ولم يعد لهذا الجسد أملا في الحياة بلا روح، إلا أمل وحيد، وهي أن يستعيد روحه، ولكن روحه أبت العودة، أبت إلا الهجر والوداع.

أبت أن تأوي إلى مهدها الأصلي، وزاغت عن منبع سكينتها..

فكان لا بد لي من أن أقتل تلك الروح النكرة التي تعد روحي، بل روح ميتة.

جُل ما قاله لها..

" لِمَ كل هذا؟!

أنا كل ذنبي إني سلمت لكي كل حُجرات قلبي وأحببتك من كل كياني؟!"

حاولت تهدئته، محتجة بأنها ما زلت تحبني، ولكن أخذت هذه الخطوة من أجل الحلم والطموح.

قلت معاتباً: " كنا سنصل سوياً، كنا في غنى عنه، حتى في بُعدك اختفيتِ فجأة، كل حاجة بينا انقطعت فجأة."

قاطعتني بنبرة مُرتجفة.. " أنا بحبك انت، بس انت أكيد كنت هتزعل، وعشان كده اختفيت خالص وكنت هرجع."

للأسف عمى العشق قلبي وعيني، كدت أن أصدقها.. كيف فعلت بي؟ هل كانت ساحرة؟! أم أنا كنت عاشق ملعون كُتبت عليه اللعنة طوال حياته!!
حاولَت أن تهدئه بكلامها الذي يتصف بالميوعة وكثير من الحنان، حتى بدأ بالفعل يبعد المسدس عن وجهيهما، همّ بأن يجعل المسدس في مستوى جذعه، كاد أن يهدأ وذرف من عينيه بعض الدموع، هنا همّ ذلك المجنون الآخر بالهجوم عليه عنوة، لم أخطط للأمر هذه المرة، دفعني ودفعته حتى سقط على الأرض، وهنا قررت في أقل من ثوان معدودة بإطلاق النار عليه..
رفعت المسدس وسددت في صدره طلقتين، أخذني جلال الموقف وهيبته، لم أستوعب بتاتاً ما الذي قمت به، وما الذي أنا مقدم عليه، في لحظات ذهولي تلك!!
هجمت هي الأخرى عليّ، دفعتني على الأرض، وهمت بالخروج هاربة من الشقة إلى خارج العمارة؛ لتستنجد بأي شخص أو تطلب لي الشرطة..
حينها رد فعل سريع مني، اتجهت نحوها وضربت طلقتين.
لا تخافوا، كنت عامل حسابي في كاتم للصوت؛ تحسباً لمثل هذه الألاعيب..
واحدة لم تصبها، والأخرى أصابت قدمها اليسرى، تعثرت خطاها، وقعت على الدرج، حملتها إلى داخل الشقة، وأوصدت الباب جيداً..
عاد بركان الغضب إلى أعظم ما كان عليه بعد ما كاد يقترب من الهدوء، انفجر، ثار ولم يعد هناك أي محالة لردعه، فالقرار قد خرج من حيّز التفكير والمناقشة، إلى حيز التطبيق والفعل.

تأكد لي أني كنت في قمة السذاجة أن أصدقها مرة أخرى أخيرة، مع كل توسلاتها وتعلقها بأطراف قدمي، لمجرد فقط أن أتركها تنجو بحياتها وتنفذ لي كل ما أطلبه..

نظرت إليها نظرة قاسية، نظرة لم تكن تتعهدها مني من قبل، كنت في قمة العصبية، لم أرَها ملاكاً بريئاً كما كنت أتصورها دوماً، بل كانت شيطاناً مريداً يبخ ألسنة الخيانة والغدر من جميع أنفاسه، وتسمع فحيحاً يصدر منها كلما اقتربت منها أكثر ورأيتها على حقيقتها ... كانت تلك حقيقتها سم في عسل.. شربت أنا ذلك العسل المسموم!

وقلت لها كلمة أخيرة..

" لِمَ كل هذا يا ساندي؟! "

أنا قد أحببتك حباً لن تجدي مثله في العالم، أحببتك أكثر من نفسي، وأعطيتك أغلى ما أملك، أعطيتك روحي التي بين أضلعي، وأعطيتك قلبي الذي لم يتحرك عشقاً وشوقاً إلا لكِ، لكِ وحدك.. ولكنك لم تُقدرِ ذلك.

أو تعلمين! أنا المُتيم العاشق المجنون، كل الدلائل كانت تبعدني عنكِ، ولكنني كنت مُصمم على الالتحاق بكِ على الرغم من كل هذه الموانع، كنت أنا الغبي، أو العاشق الغبي إذا أردتِ أن تسميني بذلك، كما يحلو لكِ.

لا لوم يقع عليكِ، بل أنا المخطئ الوحيد..

لم تكن كل الطرق تؤدي إليك، أنا من كان عاكفاً على الطرق كلها في محاولة للوصول إليك، لنظرة منكِ أو ابتسامة فقط، أنا الآن لا طاقة لي للاعتكاف مجدداً، أو السير خطوة واحدة إليك، قد بعدت بيننا المسافات، وشق علينا الوصل من جديد.

بل لكِ ذنب أنني أحببتك، وأنتِ قدمتِ الخيانة مقابل الحب، أنا عشقت وأنتِ هجرتِ، أعطيتِ قلبي أمل الوصل بكِ، فأصبح أسيراً لكِ، وأصبح لا يرى في الوجود إلاكِ، أنتِ التي قتلتني أولاً.

قتلتِ قلبي المسكين الذي أحبك، وروحي التي سرقتِها مني وذبحتِها كما يحلو لكِ في وقت متسع عريض.

حان الوقت لأرد لكِ الجميل، وأرد لك ما فعلتيه في، سأقتلك وأستريح منكِ للأبد، لم أعد أحبك، فلقد كرهتك كما يكره الإنسان منا عدوه في الحرب ومن ظلمه.

وهي شاخصة أمامي لم تنبس ببنت شفة، بلا تردد تلك المرة أطلقت عليها طلقة في منتصف قلبها مباشرة.

أطلقت عليها النار، وأنا أنظر إليها نظرة عزة وانتصار.. لقد انتصرت لنفسي وانتقمت منها، وأخذت بثأر قلبي المجروح بسببها.. وللأسف لم أكن في تمام وعيي..

صدقوني، حينما رأيت الدم ينسال منها فزعت، هرولت إليها، صرخت بعزم ما أملك..

سااااااندي... لا أرجوكِ، لا تموتي.. أنا أحبك.. ما زلت..

في لحظات مرت عليّ كثقل الجبال على صدري، لم أستوعب ما آلت إليه المشاهد، تمنيت أني لو لم أعرفها مطلقاً، تمنيت أني لم أحبها، ولم أترك قلبي لها تتصرف به كيفما شاءت..

ولكن العشق الجنوني لها قد أخذ لُب عقلي مني وجعلني أقتلها، هذا العشق السبب في القتل...

أنا هنا قد انتهيت من كل ما أريد أن أقوله لكم.. شكراً لأنكم استحملتموني.

كدت أن أنسى ما علاقتي أنا بذلك كله، وما علاقتي بـ "حمادة و سوسو" ، هذا ما أريد أن أعترف لكم به في الأساس، بسبب هذا اللايف.. ببساطة أنا هو حمادة.

لا تتعجبوا، لم أعرف أن أتعرى أمامكم، كنت في خوف وقلق، هذا ما أردت أن أعترف به لكم.. لا تكرهوني.. لم يكن في يديّ شيء حيال ذلك، لقد كان قلبي هو الذي يتحدث.. ومن ثم يرشدني إلى ما يتوجب عليّ فعله..

تلك الاعترافات الخطيرة التي أود أن أقولها لكم..

اعترافات حصرية ولا إيه؟ سمّوها اعترافات عاشق أو عاشق قاتل.. سموها كما تريدون، ولكن الأهم الاعترافات نفسها.

نعم قتلتها يا ماجد.. إذا كان سؤالك في التعليقات فـ ردي نعم أنا القاتل، قتلت حبيبتي الفنانة الصاعدة "ساندي أبو المجد" ، قتلتها بهذا المسدس..

أرجوكم لا تفزعوا..

أنا الآن في شقتها في المعادي بعد ما قتلتها، وأنا الآن أمام جثتيها مُلقاة بجانبي..

لقد تكرر بيني وبينها مراراً: قالت جننتُ بمن تهوى، فَقُلتُ لها العِشقُ أعظَم ما بالمجانين.

انتظروا سآخذ التليفون لأريكم..

ها ما رأيكم الآن بهذا المنظر المبهج الذي يشفي الغليل من الروح؟!

لا، لا أريد أحداً أن يُسيء إليّ بالألفاظ، يا للهول كل هذه الشتائم والسُباب!
امم تمام قولوا ما تحبون، لم أعد أهتم لأمركم جميعاً..!
آها، قبل أن أختم الفيديو اللايف كان فيه اقتراح في الآخر كنت بدأته في أول الكلام، بس محتاج آخد فيه آرائكم..
يا ريت الكل يقول رأيه بسرعة بكل جدية، خلاص الوقت لا يتسع والمجال يضيق عليّ..
تبقى في خزينة المسدس طلقة واحدة، ما رأيكم أفكر أن أهدي تلك الطلقة هدية قيمة إلى نفسي الغالية؟!
أراكم صامتون هكذا!!
على الأرجح لن أجد هدية أفضل من تلك الطلقة أهديها إلى روحي التي ماتت من الأساس، تكن ملاذاً لهذا القلب العاشق، وتكن خلاصاً من هذا الألم القاتل، وجزاءً لي على ما اقترفته أولاً في حق نفسي، وثانياً في حق قلبي المسكين، وأخيراً جزاء هذا القتل.. لم يعد لي مكان في هذا العالم منذ الآن..
كفوا عن توسلاتكم التي لن تُجدي نفعاً، لقد خرج السهم من القوس، ولا سبيل لإرجاعه، أو يُعقل أن من يموت يعود!!
شكراً لكم أنكم سمعتموني كل هذه المدة، ولكن كان لكم السبق في معرفة هذه الأسرار.." أسرار عاشق قاتل ".. أظن أن هذا العنوان سوف يتصدر عناوين الصُحف والاخبار في طليعة اليوم .
أراكم على خير..
امم، الأدق.. أراكم على أعتاب جهنم، من منكم سوف يأتي إليها سوف يجدني في انتظاره هناك.

أُغلق البث المباشر من صفحة الفنان أحمد الحلو.

وبعد دقائق نشر منشوراً أخيراً له.. كان هذا آخر ما كتبه الفنان الراحل أحمد الحلو، عبر حسابه الشخصي على الفيسبوك.

كتب فيه: " قتلتها، وسأقتل نفسي الآن ! "

" الثقافة أن تعرف نفسك..

أن تعرف الناس..

أن تعرف الأشياء والعلاقات، ونتيجة لذلك ستحسن

التصرف فيم يلم بك من أطوار الحياة "

نجيب محفوظ

* * * * * * * * * * * * *

" يظن كثير من رجال الإدارة أن العلاقات الانسانية فصل في

كتاب تنظيم العمل، وهم مخطئون في هذا، فالعلاقات

الإنسانية هي كل الكتاب "

بيلغر شتاين

دكتور قلوب الغلابة

واحد.. اثنين.. ثلاثة.. على الهوا!!!!

- يوم جديد ورحلة جديدة نبحر فيها سوياً ومع حضراتكم، رحلة كلها علم وتنوير، سنعرف فيها أكتر ونفكر بأسلوب أحسن من أي وقت تاني، أهلاً بكل اللي بيتفرجوا علينا دلوقت في كل مكان، يا ترى تتوقعوا إيه في حلقتنا النهارده؟
- خلينا نطلع سوا نشوف التقرير اللي مجهزه لينا الإعداد عن حلقة اليوم، ونرجع سوا عشان نجهز العدة والعتاد للانطلاق في رحلة جديدة من برنامجكم رحلة ممتعة.
- الآن أيها السادة المشاهدين، نستقبل ضيفنا الكريم في الاستوديو الدكتور/ مُحسن الشامي استشاري العلاقات وخبير العلوم الإنسانية.. أهلاً بحضرتك يا دكتور.
- أهلاً وسهلاً بيك وبالسادة المشاهدين في كل مكان، ونقدر النهادره نجاوب على بعض أسئلتكم المتداولة.
- في البداية يا دكتور عاوزين نعرف من حضرتك ببعض التوضيح.. إيه أسس بناء العلاقات؟
- في البداية حابب أشكركم على استضافتي المشرفة لي في هذا البرنامج، ومع حضرتك في برنامجك المحبوب.

- شكراً يا دكتور.. نزداد بك قيمة ومقاماً، اتفضل.
- ممكن تكون أعقد حاجة في الدنيا هي العلاقات البشرية، معقدة لأنها دايماً محتاجة عقل واعي ومركز، ومع تركيزه بتصبح أيضاً معقدة.. العلاقات بين البشر تعتبر أحد أهم أسباب السعادة والإقبال على الحياة.. من أمثال علاقات الحب وعلاقات النجاح، وفي نفس الوقت تصبح أحد أهم مصادر التعاسة والألم والأمثلة كُثر، هي وجهان لعملة واحدة.
- يااااه! ده الموضوع طلع كبير وضخم على كدة!
- هنا السؤال الذي يطرح نفسه على الساحة كيفية إعطاء كل علاقة حقها، وإعطاء كل ذي حق حقه؟
- أنا هحاول أبسط الكلام على قدر المستطاع؛ عشان يوصل بأسلوب سلس للمشاهدين، كل واحد فينا جواه مجموعة من الاحتياجات النفسية الطبيعية.. احتياج إنك تتحب.. احتياج إنك تتقدّر.. احتياج إنك تتشاف وتتسمع..
- كلها احتياجات طبيعية، كلنا اتولدنا بيها ومن حقنا إننا نلاقيها في العلاقات اللي داخلين فيها، بل فيه ناس بيفضلوا طول حياتهم يبحثوا بصدق عن مصدر واحد على الأقل يعطي لهم شعور الاحتياج ده.
- احتياج إنك تُبادل شعور الحب مع المحيطين، وحتى احتياجك في إنك تعبر عن رفضك لشيء ما لا تريده بكلمة لأ.
- وعليه، الإنسان بطبعه يميل إلى المؤانسة، يحب أن يدخل مجالس الناس ويتحدث إليهم، وأن يكون محل أنظار الناس.. بالمعنى البلدي عاوز يحس إنه متشاف، العيون متقبلاه، النفوس بتفرح لما بتشوفه، والناس

بتنادي عليه عشان يجي يقعد وسطهم، ووجوده فارق، وإنه يستاهل، وفوق كل ده مش مُضطر يدفع ضريبة عشان يشعر بتلك المشاعر السمحة، مش مضطر يدفع أي ثمن..

- الإنسان ببساطة محتاج في المقام الأول يشعر إنه إنسان.
- دكتور مُحسن.. أنا بتفق معاك في احتياج الشعوب حالياً إنها ترجع للإنسانية متنفسها من جديد.. تقدير الإنسان لأنه فقط إنسان.. لديه حقوق يجب على الجميع أن يحترمها ويُلبيها له.. صح يا دكتور!
- بالظبط.. وإن لم يستطع أن يُلبها له، على الأقل لا يُنكرها عليه، أو يرفض حقه في إقامة كيانه في الأول والآخر كـ إنسان..
- في الأغلب الأسئلة كثيرة، وفريق الإعداد هنا قام بتحضير مجموعة دسمة من الأسئلة التي لن نستطيع أن نُكفيها حقها، فهي كما كانت دسمة، فستكون الإجابة عليها لا تقل دسامة أبداً عنها، بل ستزيد، وسنحتاج أوقاتاً مضاعفة من وقت برنامجنا..
- ولذا اجعلونا ننتقي بعض الأسئلة البارزة، ونضعها على طاولة النقاش هنا؛ ليملأها لنا دكتور مُحسن بعلمه وبالدسامة المطلوبة..
- شايف حضرتك الإنسان بصفة عامة مهدور كرامته؟ علاقات كتير فيها يُطلق عليها العلاقات السامة متواجدة في عصرنا وبشدة..
- جيد للغاية، سؤال دسم فعلاً ومحتاج مننا أننا نستفيض في شرحه مجملاً وتفصيلاً.. ممكن نبدأ الإجابة مباشرة..
- ده أحد أوجه العملة للعلاقات، نذكر مثالاً على إحدى العلاقات المؤذية، بطبيعة الحال والتاريخ بيشهد على مر العصور على تفرقات

عنصرية كتير في أزمنة الفراعنة والحكام الطبقية، والاختلاف بين الأبيض والأسود البشرة، كل ده نقائص اتزرعت في النفوس..

- وتُعدّ العنصريّة من الأمراض المتفشية في عصرنا ده، وإذا عالجنا نظرتنا التي ننظر بها للآخرين مشاكل كتير جداً هتتحل في حياتنا.
- واضح إن اللقاء مع حضرتك زاد قلوبنا وعقولنا في العلم والمعرفة حتى امتلأت عن بكرة أبيها، ممكن توضح أكتر للمشاهدين فكرة العنصرية كنوع من العلاقات المؤذية؟
- مفيش إشكال.. سأستخدم أمثلة بسيطة عشان الموضوع يأخذ حيزاً سهلاً في الفهم والإدراك..
- العنصرية بتعريفها العلمي: هي التفريق بين أفراد المجتمع في حقوقهم وممارسات تقوم على اضطهاد وتهميش فئات أشخاص ومجموعات لأسباب، منها العرق أو اللون أو الدين أو الثقافة....
- ممكن توضيح زيادة؟!
- أنا شكلي اتكلمت كلام دسم فعلاً، طيب خليني أتكلم معاك ومع المشاهدين بالبلدي، في الأول ممكن نبدأ بقصة وهي ستوضح المقصد..

يُحكى أن امرأة بيضاء قد ركبت الطائرة تجلس بجوار رجل أسود ويبدو عليها الضيق والضجر، فنادت على المضيفة بأنهم قد أخطأوا حينما أجلسوها بجوار هذا الأسمر، وأنها لا ترضى بذلك مطلقاً.. بعد مفاوضات ومناقشات وإقناعها بأن الطائرة قد استوعبت كل طاقتها من الأعداد، إلا أن المرأة لم تتوانَ أبداً في الصريخ وفي العنصرية المفرطة على هذا الرجل الذي لم يخطئ بتاتاً، وإنما كل ذنبه أن بشرته التي سواه الله عليها سمراء اللون،

حاولت المضيفة تهدئة السيدة البيضاء ثم ذهبت بحثاً عن حل؛ عساها تخفف من وطأة هذا الصخب، وبعد دقائق عادت ومع إطلالتها إشراقة بسيطة، وقالت:

- سيدتي كما قلت لكِ إن الطائرة لا يوجد فيها مكان واحد، فهي ممتلئة عن بكرة أبيها.
- هذا ليس شأني، بل شأنكم تلك المشكلة.
- ولكني بلغت كابتن الطائرة وقد أكد لي أن كل المقاعد شاغرة، ولكن وجدنا مقعداً خال في الدرجة الأولى الخاص برجال الأعمال، وهذا طبقاً للقوانين فهو صعب المنال..

ولكن إنزالاً لرغبتك واحتراماً لها فسوف نغير القوانين الآن من أجلك.

ثم التفتت المضيفة إلى الرجل صاحب البشرة السمراء، وقالت في ابتسامة كلها رقة:

- سيدي، هلا تفضلت معي؟ فقد جهزت لك مقعداً أكثر راحة يليق بك في الدرجة الأولى الممتازة.
- أحسن تستاهل هذه المرأة المتعجرفة التي تدس السم في كلامها وأفعالها، أعتقد أن فكرة حضرتك وصلت، وإن العنصرية القاتلة تلك بتفرق بين الناس وتلك تخلق الفجوات بين البشر وبعضهم..
- التاريخ بيأكد كلامك فعلاً، العبيد زمان كان كلهم من أصحاب البشرة السمراء، الجميل يحتقر الأقل منه جمالاً في مقاييسه، الغني يزدري الأقل منه مالاً بمقاييسه، وهكذا الكثير والكثير.. لا يتسع الوقت بسردها الآن، كل ذلك يصيب في القلب برمح نافذ، وتنشؤ فيه الأمراض

النفسية، ويفسد صلاحه، فيتحول إلى كتلة من الأحقاد والكره والغل، وقل ما شئت فيه أن تقل.

- كيف نقدر على معالجة العنصرية في حياتنا؟! حلول ملموسة ممكن حضرتك تقدمها لينا؟
- هو العلم الحديث تكلم كثيراً ويجب علينا تقبل الآخرين، ولا نلتفت إلى العرق واللون والدين والمذهب والنوع من ذكر أو أنثى.. وهكذا، ولكني أجد تلخيصاً لكل هذا في فكرة لا بد أن نفكر بها جميعاً كما قال رسولنا -صلى الله عليه وسلم-: الناس سواسية كأسنان المشط، و لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ومن منبع عقيدتنا الإسلامية نرى روح التعاون ومدّ يد العون لكل ضعيف باختلاف أصولهم ومنابتهم، فالدين عند الله المعاملة.
- شكراً جزيلاً يا دكتور على الإجابة الشافية هذه، خلينا نطلع فاصل ونواصل الرحلة الممتعة مع ضيفنا.
- ورجعنا من جديد عشان نكمل حلقتنا الدسمة مع دكتور مُحسن، في الفاصل وصلنا سؤال من أحد مُتابعي البرنامج بيسأل فيه عن
- إنه لا يحب الأُنس بالناس، ويميل إلى الانطوائية والبعد الاجتماعي، فهل في هذا مشكلة؟
- آها، ده جانب كبير من الدراسات النفسية وفيها كتب ناقشت تلك القضية، ولكن لنعطي مفهوماً بسيطاً عنها....

- أولاً العزلة شيء نسبي لا يجب أن نتخذه منهجاً لحياتنا، من الممكن أن يصبح الاعتزال فترة مؤقتة تُراجع فيها نفسك وتفكر بأسلوب إيجابي وتُعيد ترتيب أهدافك وأولياتك، ثم تعود إلى مضمار الحياة مرة أخرى، ولكن لا تتخذ الاعتزال هو أسلوبك الأوحد وتقل هذا طبعي الخاص وما أحب..
- ثانياً ليس في فطرتنا، إنما كلنا نحتاج إلى بعض الأوقات بعيداً عن الأضواء نعالج فيها ما يختلج صدورنا، ونرتب ما بعثرته المواقف والعلاقات، ثم نأخذ نفساً عميقاً ونعاود الكرة من جديد.
- أعتقد النقطتين اللي ذكرتهم اختصاراً لكلام كتير، بس من المهم أن يترسخ ذلك في عقولنا وأرواحنا.
- قبل ما نختم مع حضرتك وكما وعدتنا بخطوات فعّالة من أجل تحسين علاقتنا أو على عكس العلاقات السامة.. كيفية الوصول إلى علاقات أفضل؟
- ببساطة الإجابة تتمحور في كلمتين.. قبل ما أقولهم أريد أن أشير إلى أن العلاقة الجيدة هي التي تسهل الحياة معها هي التي تجعلك أفضل، أنجح..
- العلاقة الجيدة تزيد ثقتك من نفسك، وتجعلك دائماً مشرقاً، مقبل على الحياة..
- وقد ذكرت في مقدمة الحلقة مفتاح بسيط عن الاحتياجات الأساسية في العلاقة الصحية، وعن أبحاث كثيرة وتجارب قام بها العلماء.. كان

مفادها بأن ما يترك أثراً في حياة الناس وما يكون فارقاً في عمرهم هو: وجود علاقات طيبة في حياتهم.

- العلاقات المريحة اللي تبقى فيها أنت وتبقى مقبول بكل صفاتك، العلاقة التي لا تتجمل فيها من أجل أحد، ده كلنا محتاجين نبحث عنه، وفي الختام ممكن أقول..
- استمع لقلبك، فإنه يشعر بما لا تشعر، وعندما يخبرك بأمر ما صدقه، هو ده المفتاح السحري اللي دايماً بنصح بيه أي شخص.
- حتى في القضايا الفقهية المختلط عليك فيها الأمر.. وبعد الاستشارة وتذهب إلى أهل العلم.. يبقى المفتاح السحري بين أصابعك أنت..
- هو أن تستفتي قلبك، وإن أفتاك الناس.. ده المفتاح السحري الحقيقي.
- قبل ما نختم معكم الحلقة، كان في سؤال حابب أسأله للدكتور بعيداً عن محتوى الحلقة.
- أكيد اتفضل.
- دكتورنا كما يُطلقون عليك.. دكتور قلوب الغلابة، إيه الحكاية وراء ذلك؟
- أضحكتني، هو الناس الطيبة البسيطة قلوبهم تشع خير وبركة هم دوماً كلامهم ستجده يُظهر معدنهم الأصيل، بعد بعض التعاملات والاستشارات الحياتية وجدت من يكلمني يفتتح معي بسؤال ألست دكتور قلوب الغلابة!
- فأضحك وأكمل ردي عليه، حتى انتشر هذا الامر، وأنا بحاول بدراستي وتخصصي إني أبسط ليهم العلاقات بينهم وبين بعض، وكما أني

لا أتأخر عن أحد، فأطلقوا عليّ ذلك، وإنه لشرف لي ذلك، بل أنا أقل منه.

- أكيد كان عندهم حق من الدُرر اللي سمعناها من حضرتك، وأكيد لأن الوقت لم يُسعفنا فيه مجوهرات قيمة أخرى يتجدد فيها اللقاء قريباً.

في الختام أيها السادة المشاهدين.. تعقيباً على كلام دكتور مُحسن عاوز أقول احنا في رحلة، ممكن تبقى حلوة وممكن تبقى مُرة، رحلة بدأناها في الجنة.. جنة أبونا آدم، وبنسعى إننا نرجع ليها تاني، كتير مننا بيحب منظر البحر الجميل بس الأكثر إننا بنخاف من البحر بنفسه لما نبقى جواه، بس لازم نجمد قلبنا، والفكرة في القلب إنه يشوف النور ويتكلم كلام حلو، لأننا كلنا محتاجين نسمع كلام حلو، بالمعاملة الحسنة والأخلاق الطيبة هنقدر سوا تكون رحلتنا أحسن.

بشكر كل المشاهدين في كل مكان، وبشكر ضيفي العزيز، دكتور قلوب الغلابة دكتور محسن، نورتنا جداً يا دكتور، وإلى اللقاء في حلقة جديدة من برنامجكم رحلة ممتعة، وفي رحلة جديدة.

سئمت التظاهر بأنني آخر!

أحمد خالد توفيق

* * * * * * * * * * * * *

" كل لحظة تطرح على الإنسان موقفًا وتتطلب منه اختياراً بين بديلات وهو في كل اختيار يكشف عن نوعية نفسه وعن مرتبته ومنزلته دون أن يدري "

مصطفى محمود

رجل في البطاقة فقط!

لا أظن أن أحد يعرفني دعني أسرد عليك قصتي :

أنا تامر ابن رجل الأعمال المعروف سمير الهواري، ترعرعت في بيت فيه من الزينة والبهاء، كما يقولون لي أصحابي بإني ابن عز، وتربيتي تربية باشوات، كلما اشتهيت شيئاً وجدته، كلما أردت شيئاً وطلبت مطالبي وجدت مصباح علاء الدين ماثلاً بين يدي، ليظهر منه عفريته مدوياً:

شبيك لبيك، طلباتك ملك يديك، اطلب واتمنى، كل طلباتك مُجابة.

كلما تهفو نفسي إلى شيء لا أتكلف عناء تحضيره، ولا أتمثل مشاق الوصول إليه.

أنا الابن الوحيد لعائلتي، أسمع ممن يتردد علينا بأني أنا الابن الدلوع، والابن المرفّه الذي نشأ نشأة فيها من الحنية والطبطبة ما فيها، نشأة لا تنشئ الرجال، وإن كانت حياة مريحة في كل شيء.. بعيدة كل البعد عن التعب..

ومصباح علاء الدين يُظهر عفريته بين الفينة والأخرى؛ ليلبي لي كل أمنياتي، وجيوب أبي موجودة ممتلئة عن بكرة أبيها، فلا أحتاج إلى أن أتعلم أو أفتح عملاً خاصاً، كل ما أحتاجه هو أن أعيش.

أبحث عن كل وسائل الانبساط والراحة، ما يجعلني ملك زماني وملك كل زمان.

أبي إني أريد عربية، فيذهب أبي إلى مصباحه السحري، فيفرك فيه قليلاً ثم يأتي لي بأفخم أنواع السيارات، كنت مُتباهياً أمام أترابي، حتى إنهم في بعض الأحيان يطلبون مني أن أعطيهم ذلك المصباح السحري؛ لكي يستطيعوا تحقيق أحلامهم، مع كل هذه الخيالات الوردية ورغد العيش وسعة الأفق من كل مغريات الحياة..

إلا أنني كنت من ضمن ممتلكات أبي أيضاً، لم يعترف مطلقاً بي كإنسان له حرية التعبير والاختيار، وماذا تعني كلمة الاختيار في قاموس أبي!

عشت طوال عمري أنساق وراء ما يقوله لي أبي، في كل محطة كان هو متصدر المشهد، ويجمع حوله الأضواء كما اعتاد في حياته، ليرشدني أي الطرق أصح وأسلم لي، مدعياً بأني ما زلت صغيراً لا أفقه شيئاً من أمور الدنيا ودهاليزها، وأنه هو الخبير الأوحد بالحياة، وعليه أن يحميني من غدر الدنيا وشرور الحاقدين.

كان يختار لي، فلم يحملني عناء الاختيار في أي موقف..

ستدخل المدرسة المعينة، ادخل بدون نقاش..

حتى مع رسوبي المتكرر، كنت في البداية أتضرر من رسوبي، وخصوصاً مع أصدقائي، فأشعر بدونية عنهم، إلا أنه كان يحدثني بأني لست بحاجة للتعليم، إنما هي وقت للتسلية، فإذا كنت ستتعلم لأجل العمل والأموال، فخير ربنا كثير ولا داعي لمثل ذلك الإرهاق الذهني، كل ما عليّ فعله هو الاندماج في صخب الحياة، أو كما كان يُردد لي:

ما عليك إلا أن تحب وتعيش زهرة شبابك.

وعلى هذا كانت تسير معظم منعطفات حياتي..

- يمين يا تامر.
- حاضر يا بابا.
- اذهب يا تامر.
- حاضر يا بابا.

لا أدّعي بأني كنت الابن المطيع مطلقاً، فإني كنت أعيش حياتي مرفهاً، لا أحمل هم رزق ولا أحمل همّ مستقبل أجري وراءه، ولا طموح يراودني من الأساس حتى تفور له الدماء وتتحرك له الهمم، وتُسخّر له المحركات والحركات..

إلا أنني كان لا مفر من هذا الإذعان والخضوع لأبي صاحب الأموال الطائلة وذي النفوذ المتأصلة، ناهيك عن أسلوبه المتعنت في الأمر، كخطاب رسمي من جهة عسكرية يُلقيه عليك بكل حزم وصرامة، لا لين ولا تبسيط فيه..

كتنفيذ قرار عسكري لا رجعة فيه أبداً، وما عليك إلا التسليم وتمام التسليم، خاضعاً لرغبته، سواء كارهاً أو راغباً لا فرق في حسية المشاعر في تنفيذ حكم الإعدام عليك، ففي كل الأحوال سوف يُنفذ الحكم، كل ما عليك أن تقول عُلم ويُنفذ يا فندم، وكل أوامرك طي التنفيذ.

وإذا لم تُنفذ الأوامر، قابلك بتصرفات لا يُحمد عقباها، كان أبسطها أن ينتشل كل تلك النعم من حولك، وأنا لم أعتَد بتاتاً أن أمنع نفسي شيئاً، كل المطالب مجابة طالما تحت راية أبي التنفيذية..

وكل الأماني في ملك يميني، اخترت ألا أختار، وعشت طوال حياتي تحت راية أبي؛ لكي أنعم بالعطايا والهبات، ولا أشتغل بالمطايا وعقبات الحياة.

كان يعترك في نفسي نزاع..

صوت دوماً يحثني إلى أن أتحرك، أقول كلمتي، أعبر عن ذاتي باختياراتي، حتى لو كانت خاطئة، ففي المرة التي تليها سوف يتحسن الاختيار، صوتاً يهزني هزاً من وقت للآخر، لعلي أستفيق من سحر الانقياد الذي أنكبّ عليه وأسير بلا هدى وراء خطى أبي التي يختارها لي، وأفعل ما يحلو لي من ملذات الحياة، لعلي أهرب من حكم الإعدام الماثل أمام ناظري طوال حياتي..

أتذكر ذلك في لحظة نور استبصرتها حينما تلمح لي حقيقة الدنيا الفانية، وماذا بعد أبي ماذا سيكون صنيعي؟

من سيختار لي تدابير حياتي؟؟

كيف سأقوم على مهام حياتي بمفردي، وأنا الذي اعتدت على من يتكفل أمري برمته؟ ثم أترك كل هذه الأسئلة مفتوحة مُعلقة بلا أجوبة، وأعود لأمارس حياتي الانقيادية مرة أخرى، تاركاً كل هذه الأفكار وراء ظهري غير عابئ.

كان المساء قد خيّم على الأجواء، البرد القارس يسيطر على الطقس، لا ترى أحداً يسير في الشوارع، إلا لحاجة لديه ضرورية.

آه، هذه أيام صرّ شديد، فلتكن الوحدة ملاذ الجميع!

- في عز طوبة، الجو مفيش حد يقدر يستحمله، لازم تخلي بالك من نفسك يا حبيبي.

قالتها الأم لصغيرها حتى يعد ملابسه جيداً، ولا يدخر مجهوداً في تدفئه نفسه.

- حاضر.

- اجهز جيداً، عشان اعمل حسابك انت خلاص مخطوب لبنت معالي الوزير.. سنلتقي بهم غداً لأجل التعارف والاتفاقات.

أخذ الأب رجل الأعمال المشهور سمير الهواري دفة الحوار من الأم؛ ليسوق ابنه إلى بُغيته.

- جواز!! ازاي بس؟ أنا لسه في أولى جامعة، وموضوع الارتباط ده بالنسبة لي خطوة مستبعدة الحدوث.
- مش مهم انت في سنة كام، يعني اللي اتعلموا عملوا إيه بالشهادات! أنا خلاص قولت كلمة لمعالي الوزير.
- بس ده محتاج وقت.. انتم ليه مستعجلين كدة على موضوع الجواز؟!
- مفيش وقت للكلام ده، أنت لا تدرك مصلحة نفسك، وأنا عارف جيداً إيه مصلحتك المناسبة ليك، وبعدين أنا كبرت وعاوز أفرح بيك وأشوفك في الكوشة بجوار زوجتك، وبعدين ألعب بعيالك وأشوفهم بيجروا حواليا في كل مكان.. بالإضافة إلى إنها بنت معالي الوزير، وده يسهل علينا مشاريع كتير مع الوزير، والإجراءات هيتم إنجازها في أسرع وقت.
- مستحيل! أنا هفتح بيت ازاي؟ وهصرف عليها ازاي؟
- الكلمة دي تقولها لما سمير الهواري المليونير يموت، انت فاهم! أنا كنت قصرت معاك في حاجة عشان تقول كدة؟ وأنا رحت فين! انت وزوجتك وأطفالك وكل متطلباتكم أنا متكفل بيها من الألف للياء.

جرت رعشة في جسدي، لا أعلم هل كانت رعشة طوبة الباردة؟ أم أنها رعشة تلك الأخبار التي تنزل عليك كالصاعقة؟ لا أنت أصابتك فرحة التلاقي فتبتهج، ولا توجعت بفراق الأحباب فتحزن.

بات السكون مهيمناً على الموقف، لا الابن يُبرز سريرته، ولا الأب يُعيد مقالته، وكأن حكم الإعدام يُتلى على مُتهم وهو من صاعقته لا يُجيب، والضابط من حزمه ينظر في عنينه بكل جدية وشراسة، ليقل له بكل ما تملكه جوارحه من لغات لا فرار من حكمي ولا قرار بعد قراري.. فالقول قولي، والمصير اختياري.

فما كان من الابن إلا أن أزعن إلى رغبة أبيه كالمعتاد، ولم يُحرك ساكناً!

أَشْرَقَت ابْتِسَامةٌ عَلَى مُحيَّاه، كأنه انتصر للتو في معركة كبرى.

في صباح اليوم التالي

كان كل شيء على ما يُرام، كل الأحداث تسير وفق الخطة المرسومة من قبل رجل الأعمال وصديقه الوزير، لم يكن بُد من الإذعان والخضوع تحت رغبتهما.

- ابني تامر خلاص كبر يا معالي الوزير، و أتي الوقت نفرح بيه كلنا ونجوز الأولاد.
- شكلنا كبرنا في السن والعيال دي هيكبرونا ولا إيه يا سمير باشا!

مع توالي الضحكات العالية من كليهما..

- لا بس احنا لسه شباب طبعاً، احنا نجوز الاولاد عشان نبقى على راحتنا، ونتجوز احنا تاني.

تعالت القهقهات المتتالية وتصديق الكلام لبعضهما البعض.

- بالضبط، خلينا نشوف مستقبلنا احنا كمان لما نخلص من الأولاد.
- يبقى مفيش داعي للعطلة واستهلاك الوقت، وخير البر عاجله، ولا إيه معالي الوزير؟!
- أنا بتفق معاك يا سمير باشا، بس نخلي الأولاد يتعرفوا على بعض الأول.
- طبعاً، كل شيء بالاتفاق، والجواز معاهم، وهو فيه أحلى من الجواز!

بضحكات سمجة استكملا حديثهما، وأنا أراقبهما في صمت لا أحرك ساكناً، ولا أعبر عن دفينة اختياراتي مع القليل من الضحكات المُصطنعة التي أجامل بها سير الحوار.

- هيا يا تامر يا حبيبي، شوف عروستك واذهب واجلس معها براحتك، وأنا سأجلس مع عمك الوزير نتكلم في كل حاجة.

هنا وجّه أبي كلامه تجاهي، ثم اتجه بجزعه ناحية الوزير بابتسامة فضفاضة، قائلاً:

- نريد أن نتحدث في المشروع خاصتنا بعد جواز الأولاد يا معالي الوزير.

تركتهم لحديثهم الاستثماري ذلك بصدد مشاريعهم -مشروع استثماري يُغدق عليهم أموالاً طائلة، ومشروع استثماري آخر تجمعهم فيه صلة القرابة، فلا يصبح بينهما حرج في أي مشروع كائن بعد ذلك- دائماً كان أبي داهية في تصريف أموره بحنكة ممتازة.

مضت الأيام سريعاً، أنا أعيش بالصورة التي تحلو لي، طالما أن أبي يرضى فلا مانع أبداً، طالما أنفذ ما قاله لي فهو يظل مطمئن البال، وتمت الخطبة سريعاً، لم أشعر بشيء يجذبني إلى الفتاة، كل ما كنت أراه أنها ابنة معالي الوزير،

والمصلحة العامة لمصالح والدي في التجارة والمناصب تقتضي إتمام هذه الزيجة، سواء أبيت أم رضيت.

تنشر الشمس أشعتها الخفيفة الحَانية في وقت العصر على مقهى في الحي الشرقي، جالساً فيه تامر مع خطيبته:

- تامر.. تقدر تقولي إيه اللي يخليك تقبلني أكون خطيبتك؟ عشاني ولا عشان معالي الوزير؟
- إيه اللي بيخليكِ تسألي الأسئلة دي؟ وليه جات على بالك؟
- تقدر تجاوبني بس.. شوف احنا بقالنا فترة مخطوبين أهو، وفرحنا قرب خلاص كمان شهرين، ولا أنت هنا.. ولا أنت مهتم بيا ولا مُهتم بتفاصيل حياتنا هتبقى عاملة ازاي!

لم أجد رداً عليها يُرضيها، وقبل أن يُرضيها يُرضيني، كنت أحاول أن أتهرب من الإجابة على هذا السؤال، لم أجد له داعٍ لتعكير صفو حياتي، فلربما إن أجبت عليه بدت لي حقائق تهز صورتي أمام نفسي، وتفصل الواقع عن الوهم، فتتضح الحقيقة.

- ما كل حاجة جاهزة، وأبويا وأبوكِ في إطار تجهيز كل حاجة، وأنا عادي أهو جاهز، انتِ مكبرة الموضوع أوي.
- يمكن في كل الأحوال ممكن وكل الاحتمالات واردة الحدوث، بس انت مش في الصورة، مع إنك الصورة الأساسية يا تامر..
- احنا جاهزين، أول ما كل حاجة تخلص سنعلم مؤكداً، ونتجوز في أقرب وقت.

بإجابة باردة أجبتها، وبكل دبلوماسية حاولت التملص من أسئلتها المزعجة لي، تفتح لي باباً أخاف أن أواجهه..

أخاف أن أفتحه مقدار أنملة، فتنفرج من وراءه الخبايا والأسرار..

كيف إذن بمواجهته!! فقد بدأ الشك يُساورها في علاقتي بها..

هي لا تُريد وأنا لا أعلم، هي قد حسمت قراراً، وأنا ما زلت لا أعلم، حقيقي لا أعلم أيهما أتخذ، كان كل مرة أبي يختار لي ولا أناقشه في شيء البتة، الآن أصبحت في وضع لا مفر من أن أقول كلمتي في أمر مصيري مثل هذا.. ما زلت لا أعلم..

- أنا لا أريد أن أُكمل مع شخص مش عارف يأخذ قراره من نفسه، مش عارف يختارني!!
- أنا.. أنا لم أمتلك يوماً براح حرية الآراء، أبي كان صاحب الرأي وصاحب كل شيء.. أبي هو القاضي وأنا المحكوم عليه..
- أبوك هو اللي قالك، أبوك هو اللي سيتجوزني ولا انت؟
- ما كان عليّ إلا أن أنفذ سمعاً وطاعة، ونزولاً على رغبته طلب مني الارتباط بابنة الوزير تسهيلاً له لمصالحه التجارية، ويُصبح لنا منصباً اجتماعياً وسلطة، فكأننا ضربنا كل العصافير بحجر واحد، وفي النهاية الكل فائز -من وجهة نظري أبي فقط-..
- انت ستظل طوال عمرك كدة عايش تحت ظل رحمة والدك، وليس لك قيمة ملموسة.. أنا لن أقبل أتجوز بواحد عليه حُكم إعدام من أبوه في أي لحظة يقوله تمام يبقي تمام، ولو قاله لا يبقي لا، أنا لن ارتبط غير بـ راجل يا تامر، سامعني! راجل وبس..

- مش راجل اسم في البطاقة بس!

كان ردها هذا قاسياً، تركتني وقامت، تركتني لأسبح مع نفسي ضد التيار، فتحت عليّ الباب المغلق من سنين، لينشر عليّ محتوياته العفنة التي عفنتها السنوات بتراكم الخيبات والمتسلطات، وبذلك يكثر العفن ويزداد تماسكاً، ليصبح غولاً يأكلك كلما حاولت فقط الاقتراب منه.

حرك كلامها فيّ شيئاً ما ظننته قد مات منذ أمد..

حركت فيّ كرامة الرجل حينما يُهان، حينما يُصبح رجلاً فقط في البطاقة، رجلاً بلا قول صارم وفعل جازم، يثبت أن كلامه من رأسه، لا من رأس أبيه أو كائناً مَن كان، رجل بهذه المواصفات لا يستحق كرامة الرجولة، أذهلني كلامها في وقت كنت أحتاج إلى من يصفعني بالقلم؛ لأسترد وعيي وأصلح ما في يدي ووجب عليّ إصلاحه.

أبي لم يمهلني فرصة لأنضج وأعرف كيف أصبح رجلاً..

كيف يُربى الرجال على كلامهم وأفعالهم، لأكون رجلاً يقول كلمته ويُثبت رجولته ويشق طريقه بذراعيه، يختار ويحب ويعيش الحياة كما يحب أن يعيشها كما خطط لها، لا كما رسمت من قِبل والده.

من الواضح جلياً أن أبي لم يعاملني كرجل، فلا يهم لديه أن أنجح أو أسقط ولا يهم الشهادات، طالما إن خير ربنا كتير فلا حاجة للشهادات طالما آخرتها قعدة البيت ولا حاجة للعمل طالما الفلوس في البنوك والمشاريع كثير، إن ما عليّ فعله هو صرف هذه الفلوس وأستمتع بها.

وحتى حينما أراد أن يزوجني، أراد من أجل مصلحته من أجل فرحته هو، لأنه يريد أن يفرح بي، ولكنه لم يسألني مرة هل هذا الأمر سبب لسعادتك!

إن أبي يُريد أن يفرح عوضاً عني، ويحب عوضاً عني، ويختار عوضاً عني، إنه يريد أن يشعر دوماً بأنه صاحب السلطة والنفوذ والأموال القادرة على أن تفتح بيوت و تُقيم أعمدة راسخة تحت اسمه وسمعته هو فقط، وتغنيني عن كوني رجلاً.

أراد أبي أن يحيا حياته مرتين، حياته هو وتلك له، والثانية لي وليست له.

بكيت كثيراً وانتحبت، تشتت كثيراً وندمت على سنوات عمري الماضية التي لم آخذ فيها خطوة التفكير، خطوة تدعم كرامتي كرجل.

ومع كل هذه الزوبعات الفكرية والاقتحامات الذهنية، لم أجد حلاً لما أنا فيه، لم أخرج من كل هذا العِراك الذهني والحُطام الفكري سوى بأني ما زلت لا أعلم ماذا أفعل؟!

رحت أسأل قلبي في قلق بصوت عالٍ: ماذا أفعل وما الحل إذن؟

لأجده يرد عليّ ويهمس في داخلي:

- تمرد، لا تقبل بالاستسلام، تمسّك بموقفك كرجل حقيقي وعبر عن رأيك كبطل خارق يُنقذ الأرواح، أو ليست روحك أنت من الأرواح؟!
- وهل لي قدرة على المواجهة؟ هل أنشب الحرب على أبي وأنا غير قادر على أوزارها، وأنا الذي تعودت رغد العيش والبراح!
- لا تراجع عما قررت إذَن، لتكن دماغك ماضية كالحديد وكالشمس ساطعة لا تغيب، فأنت لا تملك إلا كرامتك كرجل وحياة واحدة، عِش كرجل بكرامته ولتمت من أجلها.
- ولكن ؟!!

- لا تتراجع عن طريقك الذي تعرف فيه النجاة، لا تهرب من المواجهة فهي لُب التحَول الفعلي من أقصي اليسار الي أقصي اليمين
- خائفا أنا !
- طالما كنت خائفاً، فماذا نفعك الخوف سوي أن أضعت من عُمرك سنين ومن روحك ذرات تبعثرت طي الزمان فكل موقف أخذ معه بعضك، ومن صحتك النفسية ما جعلها مُتهالكة تنادي لطبيب يُداوي جراحها و يُطبب مداخلها .
- وهل ترى من جدوي من أفعالي أو ردة فعل مني حينما أتخذه؟!
- قلت لك إن عزمت فلا تتراجع.. فالرجوع عن الحق خَيبة وتخاذل .

بعد صمت قد خُيّم علي الأجواء ، بعثت تنهيدة طويلة ثم نظرت في الأفق البعيد وهمَمت بالرحيل لأجد قلبي يُحدثُني

" فليكن كائناً ما يكون.. إن غداً لناظره لقريب!! "

" رأيت الشجاعة سواء في حرب فيتنام أو في الصراع لوقفها.

تعلمت أن حب الوطن يتضمن الاحتجاج، وليس فقط

الخدمة العسكرية. "

جون كيري

* * * * * * * * * * * * *

إن الجبان يموت آلاف المرات، ولكن الشجاع لا يذوق

الموت إلا مرة واحدة.

الشهيد الحَيّ

- عن شواهد حقيقية لبطل واقعي -

ثم قال لي بصوته الدافئ الحنون:

" وقاتل بشرف واستقبل الأقدار بكل فخر، فسوف تُكشف الستائر عن البصائر، وسوف تُزال الحُجب عن الأعين وتُبصر بأعين جديدة عليك، وتحيا حياة لم تتنفسها من قبل ثم صمت بُرهة نظر إليّ فيها..

مع السلامة يا بُني. "

كان لتلك الكلمات التي رتلها العم راضي لي في القطار في آخر المحطة وقعاً جميلاً في نفسي، ولكنه وقع الغموض، ولذا بدا على ملمحي التبسم البسيط، وكأني أنظر إليه وأنتظر أن يستفيض شرحاً لي.

تعرفت على العم راضي في القطار في رحلتي للعودة إلى أراضي الخدمة الوطنية في سيناء الحبيبة، والتي ابتدأت الرحلة من محافظتي الغربية، كنت شارداً أتابع الأراضي الزراعية على طول الطريق، كان الهواء من نوافذ القطار يُداعب وجوهنا التي تتلمس فيه بعضاً من لطائف الحياة من هذا الحر المدقع والتكدس الصاخب والأنفاس المتقاربة..

- انت دُفعة يا ابني مش كدة؟! باين من لبسك الميري.

قالها هذا العجوز وهو يُربت براحة يديه على كتفي المقارب له.

انتبهت إليه من شرودي، وعلمت أنه يُخاطبني..

- نعم يا والدي، أنا جندي مقاتل إبراهيم عيد إبراهيم.

فبادرني بابتسامة عذبة، ومد إليّ يده مصافحاً:

- معاك عمك راضي، منصورين يا بُني بإذن الله، فأنتم حُماة مصر من كل مَن يترصد لها شراً، هلّا سمحت لي اي بُني أن أفرد ساقي على استقامتها؟ فإنها تؤلمني قليلاً.

- اتفضل يا عم راضي، ألف سلامة عليك.. اعتبرني مثل ابنك وخذ راحتك ولا تقلق.

- انت شكلك ابن ناس طيبين ووشك منور، ربنا يحفظك من كل سوء.

وتركني وغط في نوم عميق، وقبل أن يحين موعد فراقه لمقعده في القطار قام ورتب عدته، ثم اتكأ على كتفين ثم سرد عليّ تلك الطلاسم والمفاهيم التي زادتني حيرة، ولكنها اشبعتني سلاماً واطمئناناً، وكأن روحك تُحلق في سماء الدنيا.

لم تفارقني تلك الطلاسم، لا أعلم السبب! ولكن فيها شيئاً ما لامس فؤادي.. ولكن مهلاً.. أين أنا؟! وما تلك الحشود المجتمعة هنا أمامي؟

هلّا أخبرتني إذا سمحت ما كل ذلك الجمع؟

توجهت بقبلتي إلى أحد الواقفين وسألته، ولكنه لم يعِرني أي انتباه، وكأنه لم يسمعني! بل لعله لم يراني فلم يلتفت ناحيتي.

وقفت وكأن على رأسي الطير من دهشتي، ولم أحرك ساكناً، بتُ أراقب المشهد وقد اعتراني الخوف والروع، ورحت أتساءل في نفسي ما الذي يحدث

بالضبط؟ إن كان حُلماً فلعله خيراً قد أحببته يوماً، ولكن ما أشد الفراق بعيداً عن أهلي وأحبابي.

يأتي صوت تسمع صداه في كل مكان تهتف به الجموع الماثلة أمامك ويرددون لا إله إلا الله.. الشهيد حبيب الله. ومع همهمات بالدعوات بالرحمة والمغفرة والصبر والسلوان مع زغاريد النساء تُطل بين الفينة والأخرى، ولسان حالهم يقول في قريتنا شهيد، من وسطنا شهيد، بطل من حديد، ودمه شريف.

تحتشد الجموع وأرى أناساً من أهالي قريتنا، ويتقدمهم أبي وأخي الأصغر، وكلما اقتربت أكثر زاد وقع الشعار في أذنيك، كدوي الطلقات في الحرب، يتوافد الرجال من كل صوب وحدب، يقدمون واجب العزاء بلا تنميق ولا تزييف، وأرى أبي واقفاً وعينيه قد اغرورقت بالدموع، ويظهر على محياه الابتسامة النقية يجامل بها المشيعين.

دار في خلدي صخب كبير من خواطر لم أنتهي منها إلى شيء يوضح لي حقيقة الأمر، ولكنه أصابني بالهلع.. هل هذا أنا الذي يتقدمون للعزاء فيه؟! شردت كثيراً ولم أفقه ماهية الأحداث تلك التي أراها رأي العين أمامي، ولكنهم يذكرون اسمي.. ويودعون بأنني قد صرت شهيداً... مستحيل، فأنا حي أُرزق.. أرى هذا بكلتا عينيّ، يا ربي دبرني.. هل هذا حلما أم أنني بالفعل صرت شهيداً مخلداً؟! أم أنها تلك الرغبة الدفينة في داخلي ووازع يحثني على طلب الشهادة في بسالة!

قطع شرودي موكب من القادة والرتب، يتقدمهم محافظ الغربية، ومعه مدير أمن المحافظة في موكب ليس بالهين، ومع أفرد من الجيش يحملون شرفهم

على قلوبهم، وخرج الكثير من أهالي قريتي.. لم أستطع أن أحصيهم عدداً ومع أهالي القري المجاورة في مشهد جنائزي مهيب في جنازة عسكرية تقدمها القيادات الأمنية والتنفيذية والشعبية بالمحافظة، وذلك وسط حالة من الحزن والبكاء بين أقارب وأصدقاء الشهيد حزناً على فراقه، أقل ما يُقال عنها بأنها احترمت وقدرت ابن مصر البار الذي ذهب زهرة شبابه فداءً لأرض مصر، يبدو أنهم قد أتوا إلى تعزية أبي.

لم أعلم أهو يوم تحلق فوق سمائه سحابة الحزن الكئيبة؟ أم يا تُرى هو يوم فخر واعتزاز ورفرفة حمامات السلام تغرد باسمي أناشيد المجد والشرف مقترنا باسمي!

سرعان ما وصلتني الإجابة، وتأكدت أنه يوم عزة وكرامة حينما قال والدي للمحافظ في نظرة يملأها الرضا والفخر وهو يقدم له أحر التعازي:

- ابني لم يذق الموت يا باشا، ابني روحه معانا في كل مكان، ويكفيني شرف إني أنا أبو الشهيد، إلا أنني يعز عليّ فراقه، فقد كان وجوده طيباً، ولم يرَ أحداً منه سوءاً قط، بس دي أمانه وربنا أسترد أمانته عندي .

أظن أن العَبرات قد باغتت أبي وسقط بعض منها على خديه، فسرعان ما احتضنه المحافظ.

- ابنك بطل من أبطال مصر يا حاج، روحه كانت فداء لأرض مصر الحبيبة، وضحى بنفسه بكل استماته وشرف، وتخليداً لعمله البطولي ولذكراه سنطلق اسمه على إحدى المدارس في قريتكم.

- عندي طلب يا سيادة المحافظ إذا سمحت لي؟

قالها أبي للمحافظ بكل الجدية والثبات.

- اتكلم يا حاج عيد أنا سامعك.
- القصاص لابني الشهيد هو وزملاءه والقضاء على البؤر الإرهابية بشمال سيناء، الذين يسعون في الأرض فساداً، وتخليص الشعب المصري من كل معتد لا يحمل بين جنبيه ذرة شرف واحدة، بل يحمل سوادا وكرها لكل مصري.

ربت المحافظ على كتف أبي مواسياً له، قائلاً:

- لا تقلق يا حاج، حق ابنك وكل الشهداء مش هيروح.

سمعت الأهالي بكلام جانبي فيما بينهم، يقولون:

بإن إبراهيم كان شاباً نافعاً لخدمة أهله وأهالي قريته، وكان محبوباً من جميع زملاءه وأقاربه، وحسن السيرة، سيرته تشهد على ذلك، حتى أنه قد سمعناه مرات يتمنى الشهادة في سبيل وطنه، دفاعاً عن أراضيها.

فزعت للفكرة في مهدها، متى حصل كل هذا؟! وهل هو أنا ذلك الشهيد الذي يتناولون اسمه؟ هذا محال في القياسات البشرية، أنا أتحرك وأتنفس وأرى وأفعل كل أفاعيل البشر.. أني أراكم جميعاً.. صرخت فيهم مراراً وتكراراً.

لمَ لا تجيبون عليّ؟ لمَ لا تتفاعلون معي؟ هل أنا شبح ولا تروني؟ يا لها من فكرة ارتعدت لها أوصالي، وكدت أتصبب منها عرقا!.

هرولت إلى أبي؛ عله يجد لي مخرجاً، ويساعدني في أن أجد رداً مقنعاً لحالتي تلك، عله أن يسمعني دونما عن الباقيين أبي، أنا ابنك إبراهيم، يا حاج عيد ردّ عليّ أرجوك، حتى أنت يا أبي لا تلتفت إليّ!

هنا استقر في قرارة نفسي بأني قد متّ، وأني الآن في عالم الأموات، ولكني بصورة شهيد، شهيد!! إذا لم أمت من قبل.. إنه شعور غريب أن أصفه لك.. إني حي أُرزق، وليس لي وجود ملموس عند البشر، مثل هذه الرياح التي تهب علينا أنا أشعر بها وهي تداعبني، أشعر بكونها حية، ولكنها مختفية الهوية والحدود، كحياة غير الحياة.

سلمت لذلك المعتقد الجديد، وإذ بي أجد نفسي في حفل له من المهابة والهيبة ما له.

كان هذا الحفل المهيب قد انعقد؛ تكريماً لأسر الشهداء، أرى اسمي على لوحة الشرف مع زملائي -كم هي من بوادر البهجة على القلب هذا التقدير، وأن ترى اسمك ملوناً بألوان الحرية والمجد في مقدمة لوحة الشرف- وقد كُتب على وجهتها شهداء العملية الشاملة في سيناء الشهيد جندي مقاتل/ إبراهيم عيد إبراهيم، وكان على اللوحة عدداً من أسامى الشهداء الكرام في تلك الموقعة.

امتطى المنصة أشخاص يبدو من هيئتهم الوقار والرصانة لا أتبينهم جميعاً، أعلم بعضهم، هذا هو محافظ الغربية، ومعه بعض القيادات الأخرى، تناول المايك مُقدم اليوم وسرد بعض المقدمات الاستفتاحية للحفل، واستهل البداية بقوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

أخبرنا الله تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قُتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية تُرزق في دار القرار.

استقل المحافظ المنصة مخاطباً أهالي الشهداء والقنوات التي كانت تنقل الخبر الإعلامي والحفل التكريمي للدنيا بأسرها، قائلاً:

- إننا بقلوب ثابتة ونفوس راضية وبدموع الفرح الممزوجة بحزن الفراق نودع أبطالاً من أبناء محافظة الغربية الشهداء، الذين ارتقت أرواحهم إلى الرفيق الأعلى خلال العملية الشاملة في سيناء، إن الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم الطاهرة تضحية لأرض الوطن الغالي وتثبيتاً من أنفسهم، ولم يولوا الأدبار، كانوا نعم الرجال الأوفياء، وإننا لنحمل تاج الفخر على رؤوسنا، وإنه لشرف يعترينا أن هؤلاء الأبطال من بيننا وذوينا.
- فافخري يا مصر بأن لكِ أسوداً لا يهابون لومة لائم ولا هجمة معتد، جبال راسيات في مجابهة أي طوفان، سماء ترتعد سحابها في الرد على أعداء الوطن مهما كانوا، ومن هؤلاء الأبطال -وراح يسرد الشهداء واحداً تلو الآخر حتى ذكر اسمي- فلكم لنا فخراً أننا منكم وأنتم منا.
- والأن مع فقرة أحد الشعراء الشباب، يقدمها لنا في مدح الأبطال الشهداء.

قالها مُقدم الحفل التكريمي؛ استعداداً للفقرة التالية بعد الكلمة المؤثرة للمحافظ.

امتطى الشاب الشاعر منصة المسرح، وفي يديه المايك، فسكت بُرهة ثم أخذنا في بحر من بحور الشعر، مغتنينا بكل ثقة واعتزاز مفتتحاً كلامه هذا من كلمات البطل الشهيد/ أحمد المنسي سوف ألقيها على مسامعكم:

يا قبورا تنادي أساميا ... ويا موتا يعرف كيف يصطفينا

سطوة الموت لن تغير لقبنا ... فنحن أحياء للشهادة سائلينا

(ميت) لقب لمن هو دوننا ... والشهيد اسم من بالروح يفدينا
مهنتى الشرف والمجد أجنيه ... وحب القلب للقلب يرضينا
فديناك يا مصر بالدم والروح ... نعطي ولا نسأل من يعطينا
قد قضيت فى الأمان عدد سنين ... وكم قضينا عن الأرض مُدافعينا
وكم قضيت هروبا من الموت ... وكم قضينا عن الموت باحثينا

لم أشعر بنفسي وأنا أستمع إلى الكلمات وقد خانتني دموعي وسقطت مني في غفلة، فأغمضت عيني وتراءى لي موقعة الاستشهاد والسجال بيننا وبين الإرهابيين الأعداء.

بات المشهد أمامي وكأنني أنا مصور هذا المشهد، أمامي أراه بعيني وأنقله إلى الجماهير بعدسة الكاميرا السينمائية، ولكن بأسلوبي.

كان كل شيء يبدو هادئاً تماماً -تعلم جيداً تلك النسائم العطرة التي تغدو وتجيء عليك وتداعب وجهك في ثنايا الفجر، والضحى على مشارف أن يفتح ذراعيه للدنيا ليستقبل يوماً مشرقاً ندياً جديداً- حتى أنني اندمجت مع تلك النسمات اللطيفة، وتحركت نفسي معها، وجعلت تنساب وتستقبلها بالأحضان العزيزة، وأتركها تداعب وجهي كيفما شاءت، لم نكن كثيراً في الوحدة الخدمية يومها، كنا ستة بالقائد الخاص بنا، في سلام نؤدي وقت خدمتنا، إذ باغتنا دوي إطلاق رصاصات نار متتالية في الهواء أفسدت صفو تلك النسائم الربانية، ومسنا طائف الزعر من هذه الانقضاضة المُباغتة، إذ وجدنا عربتين نقل تمتلئ بالرجال الملثمين ويطلقون النار هنا وهناك.

تحركنا جميعاً -كل من كان في الوحدة حينها- في حركة غير إرادية غير محددة الاتجاه، لا انتظام فيها ولا ترتيب، إنما جاءت نتيجة الزعر المفاجئ القاتل لهذه اللحظات السمحة الندية.

- الحق يا فندم، واضح أننا سنواجه أوقات عصيبة في هذه الأثناء، فيه هجوم على الوحدة من ملثمين، من الواضح إنهم من الجماعات التكفيرية على مقربة منا.

قد نقلت تلك الرسالة في سرعة إلى قائد الوحدة حينما رأيت عربات الإرهابيين تتقدم نحونا، ويطلقون الرصاصات في الهواء.

- كل واحد يلزم موقعه العسكري، واستعدوا تمام الاستعداد، فنحن على وشك نيل الشهادة يا رجال.

قالها القائد بكل ثبات ويقين في طلب الشهادة.

- اتصل بالوحدة المركزية يا إبراهيم قولهم إننا نتعرض لهجوم عدائي مباغت في المنطقة الشمالية، وإننا محتاجين دعم في أقرب وقت وبأقصى سرعة.
- ألو.. ألو.. من الوحدة الشمالية إلى الإدارة المركزية حوّل، نتعرض لهجوم كبير، أرسلوا إلينا العون في أقصى سرعة، هل من مجيب؟
- عبد القوي احمي ضهري في منطقة الشرق، وسأتولى أنا هذه الجهة.

قالها بيتر -الجندي القائم معنا في الخدمة حينها- بكل روح القيادة، وبكل الحرص على أرواح زملاءه معه.

- سأتولى أنا منطقة السطح وأحاول جاهداً أن أحمي مقدمتكم من أي محاولة للاعتداء إذا حاولوا اقتحام الوحدة في أي وقت.

لم أدرِ ما الذي شغلني وقتها، إلا أنني مع الخوف الذي كان مسيطر على الأجواء قلت تلك الكلمات في شجاعة وإقدام، خطوت الدرج إلى أعلى لأتولى مسؤولية حماية الوحدة من هذا الهجوم الخسيس غير الشريف، بعد ما أذن لي القائد، قائلا في حزم:

- تولى ذلك أنت يا إبراهيم، وخذ معك العُدة والذخيرة المناسبة معك، هيا الآن أسرع.

وأنا في مقدمة الدرج قبل صعودي بلحظات -وكان دوي الرصاص يملأ الأرجاء في كل ناحية- سمعت صوت صرخات من خلفي، فالتفت مسرعاً إلى منشأ تلك الصرخات، فإذا بي أرى بيتر يهوى على الأرض غارقاً في دمائه، بعد ما أصابته إحدى رصاصات الغدر من الخونة الإرهابيين.. هرولت إليه مسرعاً بدون تردد، وحملت رأسه على فخذي وهو مستلقٍ على الأرض يصارع الموت، ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

- تماسك يا صديقي، تماسك سوف ننجوا من هذه المنحة، ونخرج سوياً كما اتفقنا، ألم تدعُني بعد على فرحك في الصعيد في الإجازة المقبلة؟ تماسك يا بيتر.

قلت تلك الكلمات بكل ثبات أمامه، ولكن روحه كانت تنزف من الداخل، لم أستطع التماسك أكثر من ذلك حتى نزلت من عينيّ دمعةً على خد بيتر.

- إبراهيم، انت عارف أنا بعزك قد إيه، اثبتوا ودافعوا عن أرواحكم وعن أرض مصر بكل قوة، حتى يقولوا إن مصر قد أنجبت أسوداً لا تحمل الخوف بين أضلعها، ولا تهاب الموت من الأساس، وابعت قول لأبويا

إن ابنك عاش راجل ومات راجل يدافع عن نفسه وروحه ووطنه بكل ما أوتي من قوة.

قالها لي بيتر وهو ينظر في عيني ويحاول أن يجمع الكلام، ثم ابتسم لي ابتسامة تشف عن معاني الرضا والفرحة، ثم فاضت روحه إلى خالقها.

- بيتر.. لاااا، لا ترحل يا صديقي العزيز، قتلوك يا بيتر.

صرخت بعزم ما فيّ وأنا أبكي وأحاول أنا أجمع شتات أمري

- دمك لن يذهب هدر، هجيبلك حقك منهم هؤلاء الخونة يا بيتر، فلتستقر روحك في سلام.

قمت مشحوناً بالغضب من هؤلاء المعتدين راغباً في الثأر لـ صديقي بيتر الذي مات برصاص الغدر، والصمود أمامهم كي لا يظفروا بنا أو بشبر واحد من أراضي مصر الطاهرة، لكي أقول لهم كم إن مصر ولادة رجال.

هرولت مسرعاً إلى الدرج، حتى صعدت إلى أعلى مبني الوحدة، لأقوم بمهامي الدفاعية عن أفراد الكتيبة ودفاعاً عن أرواحنا صداً ورداً على كل إرهابي قادم، تبيت المشهد وأخذت موقعي جيداً، رأيت ما يقارب من الثلاثين أو أكثر بقليل قد نزلوا من العربات النقل، وقد استقروا أمام الوحدة ومعهم ذخيرة ليست بالهينة من البنادق والرشاشات، وقاموا بمحاصرة المكان وشرعوا في إطلاق الرصاص.

هنا لم أعلم ما الواجب أن أفعله في ذلك الموقف، أخذت أنفاساً متتالية وجمعت رباطة جأشي، وعزمت العزم، وجعلت النية لله خالصة، حاولت أن أستقر خلف واحد من جدران السطح؛ حتى يكون حصني منهم.

هنا لا أعلم لمَ جال في خاطري طلاسم العم راضي! أكان يقصد بكلامه هذا الموقف العصيب؟ وماله كيف يعرف ما الذي ألاقيه؟! وقاتل بشرف واستقبل الأقدار بكل فخر، فسوف تُكشف الستائر عن البصائر

ما الذي كنت تقصده بجملتك تلك أيها العم؟! لعله أتى الأوان لتحقيق تلك النبوءة، وهذا هو نبأ قد أظهرته الأقدار.

قمت وانتفضت ورددت الشهادة؛ تحسباً لها واستقبالاً للأقدار بنفس راضية، وأخذت بندقيتي ورحت أصول وأجول فيهم ضرباً عشوائيا؛ لعلي أصيب منهم في جمعهم هذا ما يشتت تمركزهم ويفرقهم، بالفعل نجحت – بفضل الله– في إصابة بعضهم، واختل ترتيبهم وتفرقوا خلف حصون سياراتهم، هنا أدركت أنهم قد فطنوا إلى موقعي، وأن جندي ما يرد عليهم الطلقات فهو يُمثل خطراً داماساً عليهم، وراح سجال إطلاق الطلقات ما يقرب من النص ساعة، وقد أوشكت الذخيرة التي معي على النفاذ.

- ألو حوّل، هل تسمعني؟ إلى الوحدة الشمالية.. قوات الدعم من الإدارية المركزية في مقربة منكم.

سمعت ذلك من نداءات الضباط في اللاسلكي الخاص بي، فاطمئن قلبي وهممت مرة أخرى لصيدهم في مخدعهم.

حاولت إعداد الكرة عليهم، ففي لحظة ما وجدت الدم يسيل من ذراعي الأيمن، لم أعد أقوى على حمل السلاح، نظرت فإذا قد أصبت بطلقة في ذراعي ولم اتنبّه إليها لشغلي الشاغل بصد هذا الهجوم العدواني، قمت بربطها بضمادة من لباسي الميري، وقد لاحظوا اختفائي فترة لانقطاعي عن إطلاق النار عليهم، وفي شرود مني ومحاولة لأستجمع قواي، إذ اثنان من

الواضح أنهما قد تسلقا البُنيان خفية وقد قدما في مواجهتي، انتبهت إليهم سريعاً، وأخذت متكئاً يحميني منهم، إلا أن طلقة أخرى قد أصابت رجلي اليمني، لم يهمني، فأنا في طريقي إلى الشهادة لا محالة.

يا مرحباً بالشهادة قلتها في نفسي وأنا أعد العُدة للدفاع من جديد، تمالكت نفسي وقمت بكل ما أوتيت من قوة وظهرت لهما، وضربت طلقات على أحدهما فوقع صريعاً، وسرعان ما وجدت توافد الرصاصات على جسدي تنهش منه كما تنهش الضباع فريستها.

سال الدم من جميع جسدي وهوى على الأرض، ولكني كنت أبتسم.. نعم ظهرت البسمة على محياي، نعم رأيت ما لم أرَه من قبل، كانت أنوار ملائكية تُحيط بي من كل الجوانب، كأنهم يزفون عريساً إلى عرسه إلى الجنان، فتقدم أيها الشهيد، استقبال حافل مشرف لا يسعه إلا أن يكون موكب ملك عظيم، طرق ممهدة بالياسمين، وعن اليمين والشمال ترى أبهى الفاتنات، لعلها الحور العين بأنفسهم يستقبلونني! زغاريد من حولي وأنوار تملأ المكان والكيان، ظهر لي العم راضي؛ ليأخذ بيدي.

- أهلاً بك في حياة لم تحيها من قبل يا بُني، أهلاً بك يا شهيد.

وسمعت منادٍ يقول هلموا لاستقبال الشهيد الجديد، فكما بذلت روحك في شرف وعزة في سبيل الله، وضحيت بعمرك لإعلاء كلمة الحق، فالله قد أعطاك حياة أبدية عنده، حياة الشهيد الخالدة.

فكما كنت على يقين بأني قد أديت واجبي على قدر الإمكان بما قدرني الله أن أدافع به عن أراضي مصر، فإني كنت على يقين مماثل بأن كل فرد معي من أفراد الكتيبة لم يتوانَ مطلقاً في أداء مهمته على أكمل وجه كان، والإقدام فتكاً

بهؤلاء الغزاة المعتدين، وإعلاء كلمة الحق طالما كان في صميم فؤادهم أن يظل علم مصر عالياً حراً طليقاً، تتجدد حكاياته وتزهو ألوانه.

هنا هوى جسدي على الأرض، وارتقت روحي إلى السماء؛ لتستقبل حفل تتويجها كشهيد في محفل يليق بالشهداء تكريماً من رب العالمين.

أفقت من تلك الرؤية التي شاهدتها على تصفيق الحضور لهذا الشاب الشاعر على قصيدته، فانتبهت أنني ما زلت في الحفل التكريمي، وهذا أبي على المنصة الآن يستلم قلادة ودرع التكريم عن ابنه الشهيد، ويُكرم من جانب قيادات المحافظة، وكعادة أبي بقلبه الطيب الحنون تسارعت العَبرات من عينيه؛ لتعبر عن مزيجاً مختلطاً في نفسه شعور العزة والكرامة مطحونة بألم وحزن الفراق في وسط تصفيق حار أشبعني وأشبع أبي رضا من قِبل الأهالي الحاضرين.

وهنا وجدت عناوين الأخبار تتصدر المشهد، ذاكرين ما قاله لهم أبي حينما انتهى الحفل التكريمي، وأخذوا منه بعض المعلومات عن ابنه الشهيد، فجاء في نص الأخبار ما يلي..

قال والد الشهيد المجند إبراهيم عيد إبراهيم، الذي تُوفي أثناء العملية الشاملة الجارية في سيناء، إن فرح نجله كان بعد شهر واحد من استشهاده.

وتابع: ابني أصيب في ذراعه بشظية، قبل استشهاده بشهر واحد، ولكنه أصر على العودة لسيناء واستكمال المشوار؛ لمحاربة الإرهاب

سمعت الصوت يُردد في أرجاء القاعة من صوت الشاعر الشاب يقول كلمته الأخيرة قصيدة للشاعر جمال مرسي:

يا شهيـدا أنـت حـيٌّ ما مضي دهرٌ وكانـا
ذِكْرُكَ الفـوّاحُ يبقـي ما حيينـا فـى دِمانـا

أنـت بـدرٌ سـاطـعٌ ما غابَ يوما عن سمانا
قد بذلتَ النفسَ، تشرى بالـذى بِعـتَ الجنانـا

لم يكن من السهل أبداً عليّ رؤية تلك المشاهد كلها متدفقة مرة واحدة من جديد، وكأني أحياها، ولكن بطريقة مختلفة، روحي ترفرف في كل مكان تشاء الولوج إليه، وفي كل اتجاه تريد الذهاب إليه، أخذتني إلى موقعة أرض الاستشهاد ولحظات الصمود العصيبة التي نلت فيها مع زملائي الشهادة.

من ثَم تأخذني في أدراج الرياح إلى الأهل والأصحاب وهم في ألم الفراق والحزن وهم يشيعونني في قريتي التابعة لمركز قطور في محافظة الغربية، ثم الانتقال إلى التكريم المشرف بين زغاريد وتصفيق وفخر بأن لهم ابناً شهيداً من ضمن الأبطال الشرفاء الأوفياء، إلى أن أخذتني إلى رؤية العم راضي وكلماته المفتاحية، وتلك الطلاسم التي قالها لي.. نعم أظن أنني قد استوعبت عن يقين مراد كلام العم راضي، واضحٌ أنه من الناس البركة اللي مكشوف عنهم الحجاب. صدَقت يا عم راضي أنا الآن قد أزيل الستائر عن البصائر، وأصبحت أبصر بعين مختلفة عن المعتادة، بل إن الحياة في ذاتها مختلفة تمام الاختلاف الآن.

هنا الآن أقف على أعتاب أراضي سيناء، ورحت أحدث قلبي ويُحدثني: أهذه حقاً الأرض التي فديت عمري من أجلها؟ هذه هي وطني، ووطن من سبقوني من أجدادي الذين طالما قاموا بالبطولات والفتوحات وحكتها لنا كُتب التاريخ.

ورحت أسأل نفسي: هل أنا فعلاً أصبحت ضمن هؤلاء أصحاب البطولات والأمجاد؟ وهل سأحصل على حصة تاريخية دسمة من ضمن الشرفاء ذوو المجد والشرف؟

البطولة صفة لا تقتصر على شخص بعينه، فكل منا بإمكانه أن يكون بطلاً، لكن بطريقته الخاصة، لكن من المؤكد أن الأبطال لا يولدون أبطالاً، ولكن يُصنعون على عدة مراحل. القَلم الذي لا يكتُب، والفِكر الذي لا ينضُج، كالسّيفِ الذي لا يبتُر الظلام لينشق ويخرُج من خلاله النّور... هكذا ردّت عليّ نفسي بشيء من الحكمة.

يا أرض مصر الطاهرة التي ستظل دائماً وأبداً نجماً مضيئاً في سماء الدنيا، وعلماً من أعلام الحضارة، سحابة كثيفة إن عاصرها أي شخص ذاق من خيراتها ونفحاتها الجمّة التي لا ينقطع مددها.

وسيشهد الجميع في بقاع الأرض من مشارقها إلى مغاربها على عزم أبنائها وبسالة جنودها وصمودهم المنيع، الذي يتصدى لأي عدو مهما كان، والتاريخ خير شاهد وخير راوي لأصالة المصري الشريف في كل الملاحم وكل الصرعات التي قابلها، وستظل أروح الشهداء الطاهرة في أعلى عليين تحظى جلال الحظوة والتقدير من الرب الجليل أولاً، ومَن عزموا الشهادة من بعدهم وساروا على نفس الدرب طالبين الشهادة، ومَن رأونا بعين التقدير والفخر حينما أدركوا أن دمائنا التي تم إراقتها على تلك البقاع الشريفة إنما هي زكاة للأروح جميعها، وفداءً عظيماً لبقاء أرض مصر شامخة عالية لا يدنسها أي معتد، ولا ينال منها أي عدو إرهابي لا يعلم بمعاني الوطنية الشريفة قدر أنملة على الإطلاق، ليبقى اسمها عالياً، ونجمها مضيئاً وصورتها زاهية.

هيا أيها العلم في يدي، رفرف كيفما تشاء هنا وهناك، ولتملأ ألوانك نسائم الهواء في كل مكان؛ لتحمل معها معاني السلام والحرية، وليشع النور منك لتكن درباً منيراً لكل من سار على الدرب، وفي كل حركة من حركات فلترسل برقيات السلام مع باقات الورد الزاهي إلى كل بلاد العالم، ولتقل لهم في شموخ: إني أنا علم السلام، وبلادي أم حنون لجميع الناس بمختلف طوائفهم ومختلف الأديان.

فلتزداد حركتك في انسيابية ورشاقة، وأزداد أنا زهواً بك.

يا له من استقبال تاريخي، وأنا أراني أعيش حياة الشهداء التي لا يدركها أحداً مهما وصفتها له ومهما دار في خلده من تصرفات وخيالات، فهي حياة جديدة منعشة متصلة، حياة عند الله وما أجملها من حياة جديدة.

هنا ظهرت لي الطلاسم التي ساقها لي العم راضي، والتي لم أتبين ماهيتها وقتها، أظن أن تلك النبوءات من ذلك الرجل الصالح إنما هي أصبحت حق يقين واقع، واستبان الأمر حينما أبصرت بعين ليس عليها غشاوة أو قيود تحيد النظر إلى مواضع الفهم والإدراك.

الآن فهمت ما معنى كلامه عن إزالة الستائر عن البصائر، ومعنى الحياة المختلفة، لعلك كنت بُشرى طيبة قد ساقها الله لي يا أيها العم راضي في رحلة العودة الأخيرة.

راح قلبي يقول لي:

إنها حياة الشهيد الخالدة، فأنا الشهيد بكل فخر، وأنا الشهيد ابن مصر.

" صدقيني..

سيأتي يوم تشكرينني فيه على أنني لم أبذل جهداً للاحتفاظ

بك!"

أحمد خالد توفيق

" لم يكن الأمر عاديًا كما تظن ، إنه أصبح عاديًا بعد ألف معركة في عقلي وألف كسرٍ في قلبي وكنت دومًا أردد لا بأس بينما كل البأس هنا في قلبي "

دوستوفيسكي

ورطة الحب

كانت هي شديدة الولع به، وقعت في شباكه وهو لم يُخرجها من الأساس أو يُبدي ما في جعبته نحوها، كان في مستنقع أحزانه، وهي تريد أن تذهب إلى هذا الجُحر وتخرجه منه..

بعد يوم انتهاء العمل وأثناء خروجهما، لمحت طيفه يسير أمامها يخرج من بين أذرع الشركة التي تختنق حريته فيها كطفل تم إجباره على الذهاب إلى المدرسة، فذهب رغماً عنه وانتظر حتى يأتي موعد جرس الانتهاء من العمل، فيفر فراً ويكر كراً.

لم تفكر كثيراً.. ذهبت إليه وقالت في ابتسامة منها:

- مساء الخير يا علاء، عساك بخير!

- ماشي الحال يا سارة.

قالها في شرود وببطء شديد، وهو ينفث دخان سيجارته التي أشعله لتوه عند لحظة خروجه من الشركة.

- أنا معي العربية بتاعتي، حابب آجي أوصلك في طريقي!

رد في اقتضاب وضحكة باهتة -تعرفها في وجوه من يريدوا أن يرفضوا أمراً ما، ولكن ببعض الشياكة في الرفض-

- شكراً يا سارة، أنا هعرف أروح لوحدي.

وبعد صمت بينهما كان يقطعه صوت السيارات من حولهما، وضجيج الناس في الشوارع، وصيحات الأصدقاء من الشركة في حديثهم فيما بينهم.

- كما يحلو لك، أكيد، أنا حبيت أساعدك وأعرض عليك بس.

هز رأسه في عُجالة، وعدّل إيزار بدلته، ثم التفت ومضى في هدوء كمسافر شريد لم يودع أحداً ومضى.

كانت تحبه، ولكنها صامتة لا تفصح عما بداخلها له، تظهر اهتماماً خفياً له، ولكنه جلياً أمام زملائهم في مجموعة العمل..

لم يكن الوقت متأخراً بعد، الشمس أوشكت على الغروب والذهاب إلى مخدعها؛ لتأخذ قسطاً بسيطاً من الهدوء، وتترك القمر لينشر أنواره الخافتة الحانية على قلوب العاشقين، ليلمس بكل خفة أفئدة الراغبين..

عادت إلى بيتها سريعاً، لم يكن لديها رغبة في الحديث مع أصدقائها أو غيرهم.. دلفت إلى بيتها، وأنجزت في طقوسها للتفرغ لاستقبال ليلها، فالليل صديق عزيز يُقبل عليك بكل سخاء، ولا يبخل عليك إلا بوصال الأحبّة..

أعدت كوباً بارداً من عصير الفراولة، فهي تُذكرها بتدفق دماء العُشاق والحب وريد أحمر متدفق، وبما أنها وحيدة في معيشتها، فهي كذلك وحيدة في عشقها، وحيدة في رؤيتها، أفلا يحق لها بعض الارتواء من هذا العصير، وخصوصاً مع ليل الصيف بنسماته وقسوة ووحدته!

جلست في شرفتها، تتلذذ بكوب عصيرها الأحمر المتدفق هذا، وانتظرت توسط القمر أمام عينيها، فهو الآن منتصف الشهر، بدراً جميلاً قد ظهر لها.. راحت تراقبه في حب وتتأمله في إعجاب، وسرحت بخيالها..

حيث ينتشي كل محب بالوصل بمحبوبه تحت ضيّ القمر وفي سكينة الليل الصامت، ولكن قلوب العاشقين فيه لها مجال من الترانيم التي تتغنى بها.

فكلما شاهد محبوبه بين طيات القمر وهو يحيطه بالسكينة والهدوء، يذهب قلبه إلى رحلة انسيابية تهفو بالفؤاد طرباً يميناً ويساراً، رحلة مبهجة لا تُوصف ملامحها.. أقل ما يُقال عنها أنها عالم غير العالم.. انفصال كلي وجزئي عن عالم الحقيقة المرهق.. سرقة بعض اللحظات لينفصل الجزء عن الكل.. ينفصل القلب عن الجسد..

ويقطف من ينابيع الارتواء بوجود الحبيب بجواره، فقط الوجود هو رسوم إطلاق السفينة الفضائية إلى القمر..

ومن ثَم تبدأ مراسم التتويج بحفل خاص فقط للحبيبين حينما اجتمعا تحت سماء واحدة في أحضان القمر.

لا يعلم أي منهما أين الرحلة؟

ولا رغبة له في العودة منها إطلاقاً، هو فقط يريد أن يكون على متن تلك السفينة الفضائية أكبر وقت ممكن.

لا محبة في السفينة ولا رغبة في الوقوف على سطح القمر ولا اشتياقاً لأحضان الليل الدافئ..

إنما هو سكينة وصل في الوصول مع من يسكن السفينة، استعجالاً للقاء وأملاً معه في البقاء..

يريد أن يتحول الوقت بأجمعه إلى قيادة القمر، تكن أنواره وحنان أحضانه هي المنتشرة طوال الوقت، فيذيبهما القمر فيه، ويذوبان هما فيه بكل ارتياح.

فكرت في علاء كثيراً، زميلها في الشركة التي تشعر بانجذاب له، لا تعلم مصدراً أساسياً لهذا الشعور، هو في معاملته معها لم يُبد لها شيئاً، لم يجر ليُقدم لها وردة.

ذهبت إليه وهو ظل مكانه، لم يتحرك قدر أنملة.. همّت به رغبة في الوصل، وهو لم يُهم بها حتى رغبة في الرؤية! قالت له وظل ساكتاً..

عبّرت عما في قلبها بالفعل، وهو قابل هذا بالنفي وعدم الاكتراث..

بكت هي، ولم يتأثر هو..

حاولت وتنهدت وانفعلت، وهو لا يبدو عليه تأثراً، ولا يبدو عليه أن قلبه ينبض مثل بقية البشر، أكان من حَجر هو أم نُزع قلبه!!

ولكنه تم اختراقه من الداخل مرات ومرات..

تعمّقت في بحر خيالاتها، وشعرت بنسمة هواء خفيفة تلاطفها وتتجاوب معها، وتحرّك شعرها المنساب على كتفيها حركة من يُداعب طفلته الصغيرة.. نظرت للقمر وهي تريد أن تقول له كلاماً كثيراً مدفوناً بداخلها، ثم سألت نفسها:

فكيف إن تولى القمر القيادة؟!

وأسدل الليل أجنحته الخافتة في وداعة، وهدأت النفوس المشتتة، وتقابلت الأرواح الغائبة لتتعانق في طمأنينة، فتسكن كل روح إلى ما أتلفت معها، فتحيا الروح ولا تنطفأ أبداً، وابتهجت المُهج بالوصال بعد انقطاع، وشربت من أنهار الحب الصافي لم يتغير طعمه، وفيه لذه للشاربين، وارتواء للمحبين.

هل يمكن للقمر إعلان رغبته في الترشح للرئاسة، يتولى القمر الكبير إنارة طرق التائهين، وتتولى بقية الأقمار قلوب المحبين! لا قمر واحد.

فكل قمر يضيء بقعته، وكل قمر يتولى إنارة قلوب بعينها، فإن القلوب إذا احتواها القمر أزهر، ومن ثَم أشرق هو الآخر ليصير قمراً..

قمر في ذاته.. وقمر يستلهم أنوراه من قمر حبيبه.. كيف يكون كل ذلك؟!

وهل تجتمع الأقمار في مدار واحد؟ هل يمكن لقمرين اثنين أن يكونا معاً، إذا انطفأ أحدهما يتولى الآخر إنارة قلبه، وإذا أنار الاثنان زادا الحياة إشراقاً بينهما! هل يمكن؟!

في ظني أن الرائعين لا يلتقون بهذه السهولة، وأن التقاءهم لا بد أن يُمهد له تمهيداً مبجلاً، تمهيداً يليق بهم كقمرين حقاً.

سرحت كثيراً حتى نست نفسها، حتى خطفها هدوء الليل وأضواء القمر المؤنسة لها، مع مداعبات النسيم حولها إلى سِنة من نوم، تحولت إلى الإغراق في النوم، استيقظت في الصباح، تذكرت ليلة أمس، نظرت للسماء فلم ترَ القمر، بل كانت خيوط الشمس تتسلل في عزيمة ورشاقة لتنشر خيوطها على الأرض.

في صباح اليوم..

ذهبت إلى الشركة، أول ما دلفت إلى مكتبها، ذهبت تبحث عن علاء، أخذت بعض التقارير لتسأله عنها، تتفنن في اختلاق الحجج والمواقف؛ حتى تظفر منه بحديث، فتخطو إليه خطوة وتزرع في قلبه بذرة، علّها تنبت وتعطي ثمارها ويخطو هو أيضاً إليها.

كان في هذا الوقت قد أعلنت الشركة بأن مؤتمرها الذي يجتمع فيه كل العاملين على مستوى الجمهورية سوف يُعقد بعد شهر من الآن في شرم

الشيخ، وأن كل العالمين بالشركة عليهم التواجد، وإعداد التقارير اللازمة لتقديمها في المؤتمر.

وجدتها فرصة سانحة إليها؛ لتبادله المناقشة في أعماله، وتنسيق بعضاً من التقارير، ذهبت إليه في دلال، وقالت على استحياء:

- صباح الخير يا علاء.. عرفت إن المؤتمر السنوي سوف ينعقد الشهر القادم!

نظر إليها بعين ثقيلة، كأنها لم تنم طوال الليل:

- عرفت.. الإعلان نازل من وقت قريب.

- طيب ألن تُجيبني بالرد على صباح الخير؟ قالتها بعدما أحست أنه يريد أن يُنهي معها الحوار، فلا حجة الآن

- عذراً، صباح الخير يا سارة.

ثم قال وهو يهم أن يقوم من مكانه:

- أنا آسف بس ورايا شغل كتير لازم يخلص قبل المؤتمر، عن إذنك.

كل محاولتها بائت بالفشل، حتى إن صديقتها المقربة التي تعلم حقيقة مشاعرها تجاهه، قالت لها عندما قصت عليها القصص:

لمَ تقحمي نفسك مع إنسان حزين هكذا؟ لا تنشغلي به، فهو ليس قمراً مضيئاً، بل جسم مُعتم، وأنت شمس مشرقة فلا تجتمعان أبداً.

كان ردها الدائم عليها الذي استغربته هي.. ولم يتغير معها بطول العهد وبالصد والرد منه:

هو بالقلب والقلب وما هوى..

أشعر بأن قلبي يُحدثني كثيراً وهو محور هذه الأحاديث..

قلبي قال بإنه يحبه ويختاره، وأنا مصدقة قلبي.

بعد شهر من اختلاق المواقف ومن اختلاس النظرات..

بدأت فعاليات المؤتمر السنوي للشركة، الجميع يصبّ كل تركيزه على إنجاز تقاريره، والمُضيّ على قدم وساق ليكونوا جديرين بوجودهم في هذا المكان..

إلا هي.. تركيزها كان منتصف الشيء لا بلوغه إحداهما أو زوال الآخر، كان نصفه في الشغل، والنص الأكبر معه، فلنقل ثلاثة أرباع الجزء.. معه هو.

تم إنجاز التقارير، وظهرت فاعليات المؤتمر في صورة جيدة، وفي ليلة المساء كان الحفل الختامي أمام البحر حفلاً موسيقاً يجتمع فيه كل الأعضاء في كل الفروع للاحتفال..

فبعد مشقة العمل يأتي حلاوة بفرحة الإنجاز..

على أضواء القمر الساطع فوقهم..

جلست مجموعتهم يتسامرون سوياً، كانا معهم، هي تحاول أن تتكلم كثيراً بروحها التلقائية المقبلة على الحياة، وهو صامت يستمع في رزانة ولا يتكلم إلا بالموافقة على أمر ما أو الرفض له، يبدو عليه الوقار، ولكنه أحياناً يبتسم ابتسامة خافتة يأخذها خلسة بين الحين والحين.

استأذنهم أن يتركهم قليلاً يمشي على شاطئ البحر ويشعل سيجارة..

نظرت إليه كثيراً، رأته وهو يسير وحيداً مبتعداً، كمركب تاهت في المحيط كلما مر عليها الوقت في التعمق أكثر، فتحولت إلى نقطة.. فتلاشت.. حتى غابت عن الأبصار..

فكرت وترددت.. عزمت وتوكلت، وذهبت ورائه مسرعة علّها تلحقه، ركضت وراءه حتى رأته فنادت عليه أنها قادمة فلينتظرها.

- سارة!.. هل جدّ جديد في الحفل؟
- صبرك عليّ أسترجع نفسي المتسارع.
- على مهلك.. مفيش مشكلة.
- أنا رأيتك ماشي لوحدك، قلت آجي أمشي معاك أشاركك في الهدوء ده، أو أشاركك في وحدتك الصامتة دي..

لم يرد.. كأنه اندهش.. أحس بأن أحداً ما يريد أن يخترق صومعته تلك، يُريد أن يفتك قدسية خلوته التي تعودها وحيداً، استرجع محاولتها في الحديث إليه، وجدها تحاول تسلق الجبل الذي يعلوه الكهف الخاص به وحده، ليس هيناً أبداً أن يأتي أحدهم الكهف، الطريق وَعِر، والجبل شاق، والمخاطر غير مُستحبة العواقب والطريق غير ممهد لها أو لشبيهاتها، ولن تستطيع معه صبراً، والكهف مظلم لا يرى فيه أحداً، إلا من أحب بصدق..!

بصدق فقط، لذا لم يأخذ أحداً معه إلى كهفه، وظل يصعده وحيداً، يتخذ من القمر صديقاً يخاطبه، ومن اتساع الجو مؤنساً يرمي إليه كل ما على كاهله، أو لا هذا ولا ذاك، مجرد أن ينظر من أعلى قمة الجبل في امتداد الكون يجعله مستريحاً نوعاً ما.

أخرجته من صمته وحديث نفسه المُطَول فضحكت وقالت :

- أنت يا هذا الي أين ذهبت ؟! هلا تسمح لي بالانضمام اليك أم أعاود أدراجي ؟!

فأسرع في الرد عليها ليُدرك موقفه أمامها وهو على وجل:

- تفضلي أكيد، احنا سنمشي وقت بسيط عشان نلحق الحفل، والمجموعة لا تتفاجأ بغيابنا.

في لحظات صمت سائرين على امتداد الشاطئ، يبعث إليهما البحر تحياته بالمزيد والمزيد من الأمواج التي تسيل من تحت أقدامهما، ويحتضنهما القمر في حنان أضوائه..

بدأت معه الحديث كالعادة، تريد أن تخرجه من كهفه المُظلم، أو تتسلق إليه الجبل إن استطاعت ولا شك لديها مطلقاً، قالت:

- القمر النهارده بدر.. أنواره مريحة جداً. انت إيه رأيك في القمر؟
- القمر.. القمر بالنسبة لي حكاية أم تحب ولادها، بتعطي ولا تبخل عليهم، حتى لو كانت مرهقة أو تتهاون في حق نفسها، أو في أصلها جسم معتم مثل القمر، إلا أنها تعطي من أنوارها إليهم.
- حلوة وجهة النظر، أنا كمان شايفة كده..

قالت في حماس، وراحت نفسه تطمئن رويداً رويداً، فأسرد في الرد:

- القمر صديق مخلص يسمع كل حكاياتك ولا يبوح بها إلى أي أحد، يسمع وهو ينظر إليك نظرة ودّ، وكأنه يريد أن يأخذك بالحضن، ذلك حضن الصديق الذي تشعر بداخله بالأمان والارتياح، كلما تحركت من منطقة إلى أخرى وعاودت النظر إليه، وجدته بنفس النظرة ينتظرني أن أنظر إليه وأحكي له من جديد..
- حتى في وقت غيابه يعود متلهفاً ومتشوقاً إليّ.

بدأت تشعر به وهو يتكلم، لم تقاطعه، فهي التي تعودت أن يختصر معها الحديث تراه اليوم قد أفاض في الوصف.

- انت كلامك عميق جداً يا علاء، ونفس الوقت كلامك أنا اتفق معاه و حبيته جداً.

تحمست لهذه الفرصة أمامها، فقد شعرت به يسمح لها بالدخول إلى صومعته وصعود جبله، فتجهزت وقالت:

- هو أنا ممكن أسألك سؤال؟! وعليه سأعترف لك باعتراف خطير.
- سؤال واعتراف! شكل الموضوع كبير، امم تفضلي أسمعك بكل وضوح.
- انت ليه دايماً لوحدك؟ إيه اللي مخليك حزين بجد؟!

صمت ولم يرد كعادته الحمقاء وشرد بوجهه باتجاه البحر كأنه يُلقي الإجابة علي مسامعه ويشكو إليه اضطراب دواخله التي أصابها العمي من كثرة عتمته .. فقالت له:

- آسفة إذا كنت قلت حاجة زعلتك، خلاص لا يهم.

أشعل سيجارة ونفث دخانها بعيداً أكثر من مرة، ورد قائلاً كجبلٍ يزحزحه عن صدره المتثاقل:

- لا سأحكي لكِ، لا أعتقد إن حد يختار يكون حزين، بس هو بيعافر عساه يفر من الحزن، ولكن لا مفر منه في الأقدار..
- للدرجة دي يا علاء تعودت على الحزن؟!
- الحزن مدينة كبيرة، لا تعلمينها جيداً، ولا أنتِ من سكانها الأصليين، أنتِ طرأت عليها، شوارعها متداخلة متشابكة، أبنيتها واسعة وضيقة في نفس الوقت، الحزن متاهة، إن دخلتِ فيها لا تستطيعين الخروج منها.
- حتى لو معجزة حصلت؟!
- معجزة إيه اللي تخرجني من المتاهة العميقة دي؟!
- امم إنك تتحب مثلاً، تحس إنك محبوب بجد من حد؟!

- ده على سبيل الافتراض طبعاً.

أخذ نفساً آخر من سيجارته، ثم أخرج زفيراً طويلاً، وضحك ضحكة فيها من الألم والتعاسة الكثير..ضحكة قد خالطها شهقة مكتومة.. ضحكة تدل على تعبه، فأردف قائلاً:

- أحب!! الحب سحابة ممتلئة تُظِلُك وتعطيك الأمان والسلام، وحينما تنقشع تلك السحابة تصبح بلا مأوى شريداً، مبعثر الخُطى ولا تجد إلا مدينة الحزن تلك بمتاهتها تفتح لك ذراعيها وترحب بدخولك لها، الحب.. وهل أنا مُغفل لأذهب الي تلك السحابة مرتين بقدمي.. لا مستحيل أن يتم ..ثم إني أصبحت فارغ الصدر فلا أحب نفسي ولن أقدم الحب او هذا الشعور التي تدفعينني إليه علي طبق من فضة، بل طبقي لم يعد يحوي غير بقايا متاهات الحب !
- الحب جميل جداً، حتى شوف ازاي البحر بيحبنا وبيرسل لينا أمواجه، حتى القمر –صديقك هذا– يُحبك هو أيضاً، لا يريد أن يفارقك.. لمَ النظرة السوداوية تلك عن الحب؟! الحب جميل..

نظر إليها وهي تكلمه عن الحب بلهفة الطفلة الصغيرة، ثم أنهى سيجارته وقاطعها في حنق..

- الحب جميل من خارجه فقط، ومن هنا أنا نويت أن أتوب عنه وأستغنى عن جماله ذلك..
- أتعلمين؟! لو كان الحب طريقاً لما سلكته، ولو كان قراراً لبعدت عن اتخاذه، ولكنه كان كوقع المفاجأة لم تتوقع أنت حدوثها ولم تتهيأ لاستقبالها، الحب أقرب ما يكون كالموت يجيء بدون إنذار.

- انت حبيت قبل كدة؟!
- حبيت.. حبيت من جوه قلبي.. حبيت لدرجة إن روحين اثنين بقوا في جسدي، روحي ورحها.. حبيت وحسيت طعم الحب الحلو وطعمه المر، الحب جميل فعلاً على حسب قولك، ولكن مرارته أكثر فداحة، شفته بكل الوشوش.. لحد ما يجي الوش الذي لم يعد فيه رجعة ولا أمل..
- سابتك؟!
- ما شابه ذلك قليلاً، كانت حب عمري اللي ضيعته من إيدي بسبب قلة صبري وغيرتي المندفعة عليها..
- عارفة لّما تلاقي روحك نورت بوجود شخص يؤمن بيك ويدفعك للأمام، ويخبرك دوماً أنك شخص رائع، ثم يرحل، هنا تكمن مشكلة الحب يا سارة.. هنا تبدأ المتاهة.. وهنا تبدأ ورطة الحب ... وبدأت معي. هنا حسيت إني ضعيف، الحب لم يُرد ان يُظهر لي الوش الحلو خاصته، الحب قرّر إنه هيوريني الوش المُر فقط..
- طيب اسمح لي أبقى بجوارك، أبقى ملجأك من الحزن! أو منقذك من الموت؟!
- ملجأي الوحيد من الحزن هو الانزواء داخل كهفي بعيداً عن الأنظار، بعيداً عن الألم.. وحينما أتعب أنام، النوم مفيد جداً، لدرجة أني أعتبره كمخدر يُنسيكِ كل الحزن وآلام الوحدة، أحيانا يُريحني المُناجاة مع الله خالقي، تُزيح عني أي اختلاج يعتصر قلبه منه وتشملني السكينة والانفراج.. أعتدت علي ذلك.. وبات يُريحُني.

- ولكنني أريد أن آخذ بيديك إلى النجاة، أريد أن أنقذك من القاع الذي تعيش فيه.. أن تخرج من كهفك المُعتم الضيق لتري الدنيا بشكل مختلف بشكل أوسع وتعلوه البهجة.

رد بكل هدوء وبنظرة شامخة قال لها:

- لم يعلمنِ أحد كيف أنجو، لقد نجوت في أزمات كثيرة، لم أعتمد على أحد لكي يعلمني طريق النجاة، لقد كنت أتكئ على نفسي المتهالكة وروحي المتداعية، وعلى الرغم من ذلك لم تكن النجاة من ضمن قائمة الأشياء التي أريد أن أعترف بالامتنان لأحد ما كان سبباً فيها.
- سأعترف لك اعترافاً يا علاء، أنا في حقيقة الأمر أحمل إليك مشاعر دفينة، مشاعر تجاهك أنت فقط.. امم مشاعر حب يا علاء.. أنا بحبك.. ممكن تجعلني بجوارك؟

سكت ولم يُبرز عن أي إجابة ..تبسم ضاحكاَ من قولها وألقي سيجارته بعيداً واستدار من البحر إليها واستطرد قائلاً

- يمكن شعور دفء لامسني الان ولكن علىّ أن أشكرك كثيراً عليه علي الأقل حسستني ولو لمرة في حياتي أني ممكن أتحب من حد أو حد يشوفني بعين قلبه علي الرغم من كمية الكأبة التي أصبحت مشهوراً بها وأصبحت ديداني، ولا أخفي عنكي أني كنت علي دراية بمشاعرك عارف.. عارف إنك.. امم.. زي ما بتقولي كدة، بس أنا لا أصلح لأي علاقات من مثل هذا النوع، صدقيني
- مُتشكر جداً لشعورك الراقي هذا مرة ثانية.

راح يشيح بوجهه تجاه البحر رافعاً رأسه إلى القمر ينظر إليه، وهي لم تجد مفراً في اعترافها لا رجعة فيه، وجدت نفسها قد ورطت نفسها في موقف كهذا، فيجب أن تُكمل، قالت بلهفة:

- ولكن أعطنا فرصة سوياً، سوف أتسلق الجبل من أجلك، سأحاول أن أهدم أسوار جدران مدينة حزنك تلك، سأدخل إلى كهفك المُظلم هذا وأنيره بنجومي، سأحيط أنا بك لأكن لك القمر الذي يحتضنك بأنواره، اسمح لنفسك إنك تحب تاني.. أنا سأعمل أي حاجة لأجلك أنت فقط .. أنت فقط!

- لمَ كل ده؟! أنا أصبحت نسخة سيئة غير مؤهلة للمخالطة والعيش الأدمي ثم ...

قاطعته في تصميم:

- عشان أنا بحبك.. هقولها تاني وتالت وعاشر، أنا بحبك يا علاء.

- لا أريد أن أسمع ذلك منك، أريد أن أوضح لكِ أمراً هاماً.. أنا مشوش، لا استفادة مُرجوة مني، أنا أصبحت غير صالح للاستخدام، أتعلمين عندما يفقد الجندي وطنه، يُصبح حينها شريداً، والجندي بلا وطن، كسماء بلا قمر.. مُجرد من كل شيء!!

حدثت نفسها أنها إذا تكلمت أكثر من ذلك فإنها سوف تُهين كرامتها.. همّت أن تمشي وتتركه مع فيض أحزانه وحيداً كما يريد..

- أين تذهبين؟!

- أتركك وحيداً في كهفك الضيق كما تريد.

- عذراً إن كنت فظاً غليظ القول والرد.

- آه قليلاً فعلاً، إذا أردت أن أتركك.. قل لي.. كما تحب، الكهف لن يتسع لكلينا.
- لا ابقي بعض الوقت، لا تُقال هكذا.. الكهف يتسع للمحبين.
- حضرتك جاي تعلمني الكلام؟!
- ممكن أعلمك أنا الكلام، وتعلميني الحياة؟ تعلميني ازاي أعيش!
- ممكن بجد!! بس الأول مَنْ الوطن ومن الجندي؟
- الوطن متبادل، والجندي من استحق أن يُثبت وفاءه لوطنه.
- هل يجوز أن أكون وطناً؟!

ثم حينما رأته لا يرد عليها ردت بتلقائية مُعلنة:

- أنا وطن من زمان، ودائما وأبداً بإذن الله سأكون وطناً، لأي حد يستحق مواطنتي، قوي بدرجة كافية لأجل يدافع عن حدودي، ويحقق لي الأمان.
- ستجدين من يستحق هذا الشرف ويرفع راية المجد والخلود.
- لا ما هو مفيش وطن يبحث عن شخوصه وجنوده، الوطن يُسعى إليه.
- لم يعد لي ثقة كجندي يُمارس جنديته بشرف وببسالة.. أنا أبحث عن أي وطن، لم يعد لي رغبة أو قوة تحملني على المعافرة من أجله.

تنهدت بعدما رأت أن الحوار سلك مسلكاً صعب المنال، فقالت:

- إيه رأيك نبدل الأدوار؟ أكون لك الجندي والوطن في نفس الوقت، الجندي الشريف الحق، يبحث حتى يجد مكانه الدافئ، يكون بطلاً مغواراً للدفاع عن أرض وطنه، يذهب للمعركة بقلب جسور، فإما النصر، وإن مات فمات شهيداً وفياً لحب وطنه.. حتى تستعيد أنت جنديتك وتصبح بطلاً قوياً تختار بقوة أرض وطنك.

- اممم، لم يعد هناك مجال للمعافرة، اتركيني فلا طاقة لجندي مهدور القوى أن يبحث عن وطن من جديد، دعيني أعيش ما تبقى فوق جبلي و بين جدران كهفي.

صمتت لم ترد هي.. وجدت أن الكلام معه مثل دائرة مغلقة، لا تظفر بشيء إلا الإرهاق والخسارة.

كم هو مؤلم خسارة الوقت والجهد وأصعب الألم حين يصيب القلب !

- حاولت أن أكون لك وطناً وجندياً حاولت معك في كلا الطريقين، فلن تجد كذلك أبداً مهما كان البحث مُضنياً منك، وعلى العموم شكراً على الكام دقيقة اللي تشرفت بالحديث فيهم معاك.

هزّ رأسه مجاملاً مع ابتسامة خفيفة لا روح فيها، ثم شرد بعيداً ناظراً إلى القمر، وظلا يمشيان رجوعاً إلى مكان الحفل.

أدركت أن فرصتها قد أوشكت على الانتهاء، فحاولت تلملم أي أمل مفقود، أي بصيص أمل تخطف خيطه، وأي نور يُزيل العتمة.

قطعت الصمت وقالت:

- وفي النهاية انت هتفضل عايش كده كتير؟!

صمت كثيراً ثم سلّم طيات الحديث لقلبه ليُعبر بلا قيود ، فتكلم بنبرة فيها التلهف :

- كنت أرغب في الحديث طويلاً، منذ فترة تمنيت لو أن أحداً يأتي وينقذني من مستنقع حزني القابع في داخلي، أحداً يُزيل أسوار مدينة الحزن، يستحق فعلاً أن يرتمي هذا الجندي المتهالك بين أحضان وطنه الحنون، أردت فقط أن أجد لي مَخدعاً يتقبلني كما أنا، ويُصبح لي وطناً آمناً، وأكون

له جندياً شريفاً.. ولكن في نهاية المطاف لم أجد ما يستحق كل هذا، فاخترت أن أصمت وأعتكف في كهفي مع وحدتي بعيداً.

كان غريباً حتى تبناه قلبها، فبات يعرف احتضان الوطن، ولكنه أنكر وطنها وتخلى عن شرف جنديته.

نظرت له وحلقها قد جف، وقلبها يعتصر من الألم.

تركته يُكمل طريقه إلى الحفل، وطلبت منه أن تبقى قليلاً بمفردها، نظرت للبحر وللقمر، وقالت:

- أيها القمر، من الواضح ستستمر صداقتنا أمداً لا أعلمه، ولكن لا تتركني أستمر أنا في الوقوع، لا بد أن تنقذني من تلك الورطة، ورطة قلبي.. ورطة الحب.. ماذا أفعل فيه؟!! قل لي ما العمل إذن!

وكأنها تسمع كلمات محمود درويش يهمس في أذُنيها:

أنت لست لي.. ولكنّي أحبك.. ما زلت أحبك.. وحنيني إليك يقتلني.. وكرامتي تمنعني وكل شيء يحول بيني وبينك!

سرحت وتمنت لو رجعت إليهم.. فوجدته يقول لها:

- هل يقبل الوطن أن يكون أرضاً خصبة لـ جندي مجهول الوطنية، مُنهك القوي، لا يقوَ على المسير، حتى يطمئن أن يُثبت رواسخه في أرضه، فيعرف الوطن واجباته، وأن يستعيد الجندي الشريف روحه النقية في الاستماتة والتمسك بوطنه الجديد!

نهاية الرحلة ..!

" السر في البذرة! "

حينما يتشعب قلبك الي جذور عدة وتتأصل رواسخه في أعماق الأرض لتنبت شـجرتك الخاصـة المعبرة عن عالمك الخاص بك وحدك، نظارتُك التي تري بها العالم، قلبك الذي يشاهد عن كثب.

هل لك أن تتخيل أن بذرة واحدة قادرة على إنبات مزروع صالح للاستخدام وأخري عَفنة لا خير فيها ولا يُرجي منها بناء أصول نبات حي يُستفاد منه!!

إن قلبك كالبذرة تضـعها في بيئة خصـبة لا عطب فيها ولا في فسـاد فتتغذي بما تعطيه من مُدخلات حصـــيلة من مجموع من طمي وماء ومعادن وسر خفي لهذه البذرة لتنبت نباتاً معيناً لهذا الفؤاد على وجه التحديد وفقط لتعطي بذرة قلب صالحة للنمو.

تتشـــعب الجذور وتدب في أعماق فؤادك وتغرس أيادي ثقيلة في تفرعات عدة لترسيخ ذاك البناء العظيم، وتتفرع الجذور في الأرض ليكن له قوة أصيلة فيرتفع البَنيان في صلابة.

سرعان ما يبدأ البَنيان في الظهور علي ســطح الأرض،للتعبير عن كينونته في العالم، يتأصـــل الجذع جيداً ثم تأخذ الفروع مجراها في النمو التدريجي لها وتأخذ حصـــتها الخاصـــة من التغذية و تُســـقي جرعة ماء بمزيج المُقومات خا صة بها، سحرَ قد أ ضيف لها لتنبت علي هيئة فريدة، وتأخذ الأغ صان في التعبير عن شـموخها فتري صـحوة البذرة من مخدعها في بهاء وعزة فإذا بها تنشر فروعها لتشق مجاري الهواء في علياء، وتُخرج أوراقها مُعبرة في انتشاء عن طلاقة كل ورقة فيهم والتي تحمل في كل عروقها قصة وحكاية، كل عرق فيها يتدفق سـيلان من المشـاعر حيناً حب فتتقارب الوريقات من بعضـها و تُزهر الشـــجرة، ونقيضُـــها بُغضْ فتذبُل الوريقات، تدفق واســـع يأخذك الي

قصـــص تقول لك أسرار وخفايا شـــعورك و رد فعلك وقتها ذلك الفعل الذي أملاه عليك قلبك حينما عبر عن كلمته.

كانت البداية كلها مجرد بذرة بســـيطة، تشـــعبت لتُخرج لك شـــجرة ذات غصون نضرة وأوراق خضراء تملؤها الحيوية، كُتب على سطحها حكاية، كل منها له تاريخه الذي يقُصه عليك ومستقبل يحلم به سوف يُخبرك به، كلمات قلبك قد تُرجمت الي أفعال ملموســـة، مثلما بدأت الشـــجرة ببذرة في باطن الأرض فقد تُرجمت الي أوراق، فالأوراق كلمات، والكلمات أوراق.

ألم أقل لك " إن السر في البذرة!! "

والي اللقاء بإذن الله في أوراق جديدة وكلمات جديدة حينما يُعبر قلبك عن مكنونه.. الي اللقاء مع جزء جديد من قلبي قال ...!

ولكن هل تنتهي الرحلة ؟!

الرحلة تنتهي بتوقف هذا القلب عن الخفقان ، فطالما مَدّ الله في أعمارنا ، سوف نستمع بإتقان الي حديث قلُوبنا.

والآن جاء دورقلبك أن يتحدث .

فلسـوف يُسـعدني أن تُرسـل لى قصـتك و سـأسردها للجميع في صـورة أدبية جديدة بإذن الله .

ويبقي في القلب فيضانات من الاحاديث ،وكما يقولون

" ياما فى الجراب يا حاوى."

محمود السّمان

الفهرس

عليك الإنتحار ١٢

لا مفر من الندم! ٣٠

البحث عن العروسة الألف! ٤٠

لحظةٌ فِطام ٥٢

قَلبي قَالْ ٦٤

الصالون الثقافي ٨٠

الحب المفقود ٩٤

اعترافات عاشق ١١٠

دكتور قلوب الغلابة ١٣٠

رجل في البطاقة فقط! ١٤٠

الشهيد الحَيّ ١٥٤

ورطة الحب ١٧٤

التعريف بالكاتب

د / محمود إبراهيم السّمان

- من مواليد محافظة الغربية – طنطا.
- دكتور صيدلي.
- الطالب المثالي على كلية صيدلة وعلى مستوي جامعة طنطا عام ٢٠١٧
- ممثل الجامعة في مسابقة إبداع الدورة الخامسة الخاصة بوزارة الشباب والرياضة في مجال المقال.
- حاصل على المركز الثان في مجال القصة القصيرة على مستوي جامعات مصر في الملتقي الأول للشباب في جامعة جنوب الوادي.
- نُشرت له إلكترونياً مجموعة قصصيّة بعنوان "مُغامرات دكتور جمعة."
- المدير التنفيذي لمشروع Cancer Fighters في دورته الثانية.
- رئيس تحرير أول صحيفة علمية التابعة لمشروع صيادلة ضد فيرس سي بعنوان HCV Fighters MAGAZINE
- مُدرب للمهارت الشخصية .
- له العديد من المشاركات الفعالة في العديد من الأنشطة الطلبية .

www.facebook.com/mahmoud.elsamman.33